عبد الحميد كشك

الجهاد والحج

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الواحد في ألوهيته الواحد في ربوبيته الواحد في أسمائه وصفاته سبحانه له الأسماء العلا والصفات العلا، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وأشهد أن لا إله إلا الله اطلع على قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاختاره لرسالته، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن

سبحانك ربي:

أنت العلي وذاك وصفك ثابت ... وإليك يصعد طيب الكلمات
ورسولك المختار من بين الورى ... خير الوجود وسيد السادات

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله قال له ربه في الحديث القدسي الجليل:

(وعزتي وجلالي لو سلكوا إليّ كل طريق واستفتحوا عليّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد).

سيدي أبا القاسم يا رسول الله:

أنت الذي من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقة بنور بهاكا
أنت الذي لما رفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراكا
أنت الذي ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباكا
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناكا
ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن تجمع الكُتّاب من معناكا

صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم، أما بعد فيا حماة الإسلام وحراس العقيدة:

يدعي بعض المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين أن الهجرة النبوية كانت فرارًا من مكة، وكذبوا وكثيرًا ما يكون هذا ديدنهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا، ولو أنهم تجردوا من العصابة السوداء التى فوق أعينهم ونزعوا منظار الحقد الأسود من عيونهم وقلوبهم لعلموا علم اليقين بل عين اليقين بل حق اليقين أن الهجرة كانت معركة بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان، نعم: إنها معركة خطط لها تخطيطًا علويًا واستمرت تلك المعركة زهاء واحد وعشرين عامًا، أي من يوم بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن كلمة التوحيد عالية في معسكر الأصنام من يومها والعناية العليا تخطط لتلك المعركة معركة الهجرة، إن الهجرة في حقيقتها كانت تغييرًا للموقع لا تغييرًا للموقف، فالموقف هو المبدأ الذي أبى رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه أن يحيد عنه، حتى حينما قال له أبو طالب قولة الأب الشفوق: يا ابن أخي ابق عليّ وعلى نفسك ودعك من هؤلاء القوم، لا تسفه أحلامهم ولا تسب آلهتهم، هنا اغرورقت عينا رسول الله بالدمع وقال لعمه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فقال له عمه: والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينًا.

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا.

نعم: لقد كانت الهجرة معركة من أعظم المعارك بين معسكر الشرك ومعسكر التوحيد وكان لهذه المعركة ثلاث استراتيجيات:

- الأولى: استراتيجية العقيدة.
- الثانية: استراتيجية المكان.
- الثالثة: استراتيجية العدد.

ولقد جاءت هذه الثلاثة في قول الله عز وجل: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة: ٤٠).

ولحكمة ما ذكر الله كل استراتيجية من هذه الثلاثة بعد ظرف زماني هو لفظ (إذ).

فقوله جل شأنه ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ هذه استراتيجية العدد.

والثانية قوله تعالى ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ فهذه استراتيجية المكان.

والثالثة قوله تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ هذه استراتيجية العقيدة.

فمن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله معه فلن يخيب سعيه ولن يضل سؤله، ومن وجد الله فماذا فقد؟ ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (الأنفال: ١٢).

والمعية في القرآن الكريم ثلاثة أقسام:

معية عامة كما في قوله جل شأنه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: ٤).

معية خاصة كما في قوله تبارك اسمه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل: ١٢٨).

ومعية هي خاصة الخاصة كما في قوله جل شأنه: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ ﴾ (الشعراء: ٦١-٦٢).

إن الحديث عن جهاد رسول الله ﷺ حديث ذو شجون، فقد مر الجانب العسكري في حياته الكريمة بأربع مراحل:

الأولى: مرحلة الحشد، وقد بدأت من البعثة النبوية الشريفة إلى غزوة بدر.

الثانية: مرحلة الدفاع، وقد بدأت من بدر إلى خيبر عندما تحرك معسكر الشرك إلى معسكر التوحيد.

والثالثة: مرحلة الهجوم، وقد يكون خير وسيلة الهجوم من أجل الدفاع وبدأت من خيبر إلى تبوك.

الرابعة: مرحلة التكامل، وقد بدأت من تبوك إلى أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، حيث كان على رأس جيش جرار تعداده ثلاثون ألف موحد وما قبض رسول الله ﷺ حتى رفع راية التوحيد على جزيرة العرب تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس في الجلاء.

ولقد مرت الدعوة الإسلامية المباركة في زحفها المقدس بمراحل كانت لها معالم في طريق الجهاد، بدأت المرحلة الأولى بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ (النحل: ١٢٥).

وجاءت المرحلة الثانية متمثلة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

وجاءت المرحلة الثالثة واضحة في قوله جل شأنه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحجر: ٩٤).

وجاءت الرابعة متجلية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج: ٣٨-٤٠).

وجاءت المرحلة الخامسة بقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

ثم جاء الإذن بالجهاد العام في قول الله جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٨ـ٣٩).

وفي قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وفي قوله تبارك اسمه: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (التوبة: ٣٦).

ولسوف يدور حديثنا بعد الجهاد عن الحديث عن الحج، فالحج جهاد المرأة والضعيف.

ولسوف نطوف بعرفات وما بعده سائلين المولى تبارك وتعالى أن يبصرنا بعيوبنا وآن يزهدنا في دنيانا وآن يحببنا في ديننا، وأن يجعل خير أيامنا خواتيمها وأن يتقبل أعمالنا في الصالحين إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير، وصلى الله على البشير النذير سيدنا محمد.

فصل: على مائدة القرآن الكريم

الأهلة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

جاء في سبب نزول هذه الآية:

أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي صالح عن ابن عباس: (أن معاذ بن جبل وثعلبة بن عنيمة قالا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال؟ فنزلت الآية).

ومناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات الصيام، لأن الأهلة كما كانت مواقيت للناس والحج، كذلك هي مواقيت لشهر الصيام والإفطار، قال ﷺ: **(صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته)**، فبينهما تمام ارتباط وتناسب.

لما سألوا رسول الله ﷺ عن الحكمة من منازل الهلال، بين الله تعالى فائدة ذلك، لأنه لمعرفة المواقيت الزمانية، وما أشد حاجة الناس إلى تلك المواقيت! فبالمواقيت يزرعون ويحصدون ويصومون ويحجون ويجاهدون بها، وتعتد المرأة وتعرف أيام حيضها ونفاسها إلى غير ذلك.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ

إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ (يونس: ٥)، ثم صحح لهم أمورًا كانوا يفعلونها في الحج، فقال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩).

وروى البخاري وابن جرير عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن جابر قال: كانت قريش تُدعى الحُمس (جمع أحمس من الحماسة وهي الشدة والصلابة لتشددهم في دينهم)، وكانوا يدخلون البيوت من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، قال: إني رجل أحمسي، قال له: فإن ديني دينك، فأنزل الله الآية..

وبعدما صحح الإسلام لهم ما انحرفوا عنه، بيّن لهم حقيقة البر، وأنه التقوى، والتقوى خوف من الجليل، وعمل بالتنزيل، ورضًا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل.

والتقوى هي السلاح الأقوى، والمتقون مفلحون، يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب. وإتيان البيوت من ظهورها ليس من البر أو العقل، ولا يفعله من اتقى الله، إنما وضع الأمور في نصابها يكون بإتيان البيوت من أبوابها، وحال المسلم يجب أن يكون سمعًا وطاعة لأوامر الله، وأن يكون

باطنه وظاهره على وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (النور: ٥٢).

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴾ (الطلاق: ٢-٣).

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾ (الطلاق: ٤).

مشروعية القتال في الإسلام

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٠-١٩٣).

المفردات:

(سبيل الله): دينه لأنه طريق إلى مرضاته.

(يقاتلونكم): أي يتوقع منهم قتالكم.

(ولا تعتدوا): أي لا تبدءوهم بالقتال، ومحبة الله لعباده: إرادة الخير والثواب لهم.

و(المعتدون): أي الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام.

و(الثقف): الحذق في إدراك الشيء علمًا كان أو عملاً، وقد يستعمل في مطلق الإدراك.

(من حيث آخرجوكم): أي من مكة.

والفتنة من قولهم فتن الصائغ الذهب، إذا أذابه في النار ليستخرج منه الزغل، ثم استعملت في كل اختبار شاق، كالإخراج من الوطن المحبب من الطباع السليمة، والفتنة في الدين.

و(يكون الدين لله): أي ويكون دين كل شخص خالصًا لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن بصره عنه ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة.

بعدما بين الله تعالى منافع الأهلة وأنها مواقيت للناس والحج، فإنها أيضًا مواقيت للأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال، والتي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وفي قوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ (التوبة: ٣٦).

وهذه الأشهر هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، فإذا ما اُعْتُدِيَ على المسلمين في هذه الأشهر، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله، وقد جاء الإذن بالقتال في الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، وما زالت وستظل. قال تعالى لنبيه ومصطفاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ ﴾ (المدثر: ١-٤).

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل: ١٢٥).

ثم: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

ثم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج ٣٩-٤٠).

ثم: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

إذن، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الآثمين، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم من ديارهم مكة.

قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحشر: ٨).

ثم قال عز من قائل: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ١٩١).

والمقصود بالفتنة هنا فتنة الرجل في دينه حتى يرتد عنه، فقد أذاقوا المسلمين ألوانًا من العذاب، لو صبت على الأيام صرن ليالي، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وسمية وياسر وغيرهم من المستضعفين، ما شأنهم ببعيد! من ثم فإن الفتنة أشد من القتل، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها،

ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده، ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٣).

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الشورى: ٤٢).

ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته، فإنه الأمن كله: طيرًا ونباتًا ووحشًا، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام.

﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩١).

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه إذ يقول: ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾.

أما إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون.

وما أعظم قوله جل شأنه: ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فالظالم عدو الله ورسوله، لابد أن يقلم الإسلام أظافره، ويكسر أنيابه، ويجتث مخالبه لأن وجوده في الأرض شر مستطير.

فالمؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب.

من هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا في وجه العدوان، وضد القوى الطاغية، التي وقف حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس.

فالأصل في الإسلام السلام، ولكنه سلام عزيز مسلح، فالله هو السلام والجنة دار السلام، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام،

وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام، وتحيته سبحانه لنبيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

فهذا هو الأصل في معاملات الإسلام الخارجية، سلام مبني على العزة والكرامة، أما السلام الذليل المستكين فالإسلام لا يعرفه ولا يقره، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٥).

واسألوا التاريخ: أي المعسكرين اعتدى على الآخر، معسكر الشرك أم معسكر التوحيد؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادئ بالعدوان، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدي معسكر الشرك؟

لا والله، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وما رفع الإسلام السيف إلا في وجه السيف، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف؟

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والحرب إن تلقها بالسلم ضقت بها ... ذرعًا وإن تلقها بالسيف تنحسم

قال ربعي بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه: ما الذي جاء بكم إلينا؟

قال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

سيدي أبا القاسم يا رسول الله

الحرب في حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين: ما قامت دعوة الإسلام على السيف، إنما قامت على الحجة والبرهان، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد، كان وحده، ويوم انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم بالسيف، ويوم انضم إليهما عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب، ولا سلطان للسيف على ما في القلب، ونسبة البلاد التي فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر في المائة، والباقون دخلوا الإسلام بطريق التجارة التي كان يتولاها تجار المسلمين في شرق البلاد وغربها.

ثم اسألوا التاريخ: متى استعمل الإسلام السيف؟ ضد القوى المادية الضاغطة التي وقفت كابوسًا ضاغطًا يصد عن سبيل الله.

ثم اسألوا التاريخ: كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا في غزوات الرسول كلها؟

من الجانبين لا يتجاوزون ألفًا وثمانية عشر رجلاً، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيدًا والباقون من المشركين، بينما سقط في الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليونًا، وفي الحرب العالمية الثانية خمسون مليونًا ما بين قتيل وجريح ومعوق.

ألا يأخذ هؤلاء الحياء؟

ثم ألا يشعرون بالخزي وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفوا خيراتها تحت اسم الاستعمار، وما هو استعمار وإنما هو استخراب.

واسألوا التاريخ عن بلد المليون من الشهداء؟ الجزائر التي وقفت وصمدت أمام الإمبراطورية الفرنسية، وزيادة في الإيضاح فإننا نذكر في قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب في كتابه (الرسول القائد) تحت عنوان (القتال في الإسلام): معنى القتال في الإسلام: هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة

وتوطيد أركان السلام، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في الإسلام.

متى شرع القتال في الإسلام؟

لم يؤذن للمسلمين في القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر، وكابدوا من فنون الأسى والضر، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة، ويثبتوا عقيدة، ويقولوا في حرارة وصدق: ربنا الله. فلمّا اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة.

فهل وقف البغي وخفت حد العداوة؟

كلا.. ظلت قريش تحارب المسلمين وتخرجهم من ديارهم وأموالهم، حتى أذن الله للمسلمين في القتال، فنزلت فيه أول آية: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج ٣٩-٤٠).

لقد خرج الرسول ﷺ غازيًا في صفر على رأس اثنى عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة، وبذلك بدأ القتال فعلا في الإسلام.

أهداف القتال في الإسلام

١- حماية حرية نشر الدعوة:

ليس من أهداف الحرب في الإسلام نشر الدعوة، بل حماية حرية نشرها، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه، والله تعالى يقول ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ولو كان الفضل في انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم، ولكن هدف الحرب في الإسلام هو حماية العقيدة، وتأمين

حرية انتشارها بين الناس، وصد الاعتداء الخارجي على بلاد المسلمين.

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال، ويعتبرون الحرب كفاح شرف، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف، فهم مقيدون باحترام العهد والترفع عن الخيانة، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين ... الخ.

٢- توطيد أركان السلام:

تكون الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها، فإذا كان لها جيش قوي احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها، فيسود عند ذاك السلام.

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ۖ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ (التوبة: ٦٠-٦١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

إن الإسلام، كما تدل عليه تسميته، دين أمن وسلام، يقوم على أساس الود والتسامح، ولا يجيز الحرب إلا في حالات محدودة بحيث تعتبر فيما عداها جريمة.

آداب القتال في الإسلام:

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وتوخى به أن يكون طريقًا إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف.

وليست الجزية عوضًا ماليًا عن دم أو عقيدة، وإنما هي لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء.

يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية في العقائد والأموال.

وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف "إني عاهدتكم على الجزية والمنعة... فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم".

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص، وأبو عبيدة على أهل دمشق، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن: "إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه هي أموالكم نردها إليكم".

لقد كان فرض الجزية في الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع في أموال المغلوبين، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب، وكانت على ثلاثة أقسام:

"أعلاها وهو (٤٨) درهمًا في السنة على الأغنياء (حوالي دينارين ونصف دينار عراقي أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو (٢٤٠) قرشًا مصريًا".

وأوسطها، وهو (٢٤) درهمًا في السنة على المتوسطين من تجار وزراع.

وأدناها: وهو (١٢) درهمًا في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً.

وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله، وهو بنسبة اثنين ونصف في المائة، القدر الشرعي لفريضة الزكاة.

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبي والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوي العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة في تحصيلها.

وقد جاء في عهد خالد لصاحب قس الناطف: (أن القتال في الإسلام لحمل الناس على اعتناقه، وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ (الممتحنة: ٨-٩).

واقرأ الآية الكريمة، وهي من أواخر القرآن نزولاً، فهي تحدد أيضًا علاقة المسلمين بغيرهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥).

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هي: بر وقسط وتعاون ومصاهرة.

أما عن تنظيم القتال في الإسلام فإنه يدور حول ما يلي:

١- تقوية المعنويات:

يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين في سبيل الله، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين، لأنهم يقاتلون لإنقاذ الضعفاء، والبر بالإنسان، ومقاومة الجبروت والطغيان، ولدحض عوامل الشر والإفساد: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً. الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾.

واستأصل الإسلام جميع النواحي التي ينبعث من قبلها الجبن والخوار، وحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله والحق.. في سبيل الخير والسعادة، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا

العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التي يخشى كسادها ولا المساكن، لا شيء من ذلك كله يصلح أن يحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

بمثل هذا الأسلوب القوي حارب الإسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف، وغرس في نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة في سبيل الحق ونصرته.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥).

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية، وقد كانت المعنويات العالية ـ ولا تزال ـ من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية.

٢- إعداد القوة المادية:

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين: القوة والرباط.

فأما القوة فتتناول العدد والعدة، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين وكافة القضايا الإدارية الأخرى.

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضًا من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو، وتهيئة القوة الكامنة منها لحمايتها.

يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار، وذلك لإرهاب العدو، حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل:

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء: ١٠٢).

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة، ويذكر بالحديد، بصورة خاصة للاستفادة منه للأغراض العسكرية: ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الحديد: ٢٥).

إن الجهاد في الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافحة عن الحق وحمايته.

٣- التنظيم العملي للقتال:

أ) الإعفاء من الجندية:

أسباب الإعفاء من الجندية في الإسلام محصورة في الضعف، ويشمل الضعف: المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الإنفاق: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (التوبة: ٩١).

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم، ولا دفع البدل النقدي، ولا البنوة لحاكم كبير، مما عهدناه في عصور

الانحلال، بل كان العمل في عصر النبي ﷺ والعصور التالية له عكس ذلك. وما كان التفكير في جمع القرآن الكريم إلا خوفًا من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقدامًا وبسالة في حرب اليمامة، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سببًا في أن يستحر القتل فيهم.

ب) إعلان الحرب:

حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدرًا:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنفال: ٥٨).

تطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحًا.

إن المسلمين لا يخونون أحدًا، ولا يغدرون بأحد، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان في القتال.

ج) الدعوة للجهاد:

حذر الإسلام من التباطؤ في تلبية داعي الجهاد والتثاقل عنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

د) عقاب المتخلفين:

عاقب الإسلام المتخلف عن الجهاد عقابًا نفسيًا، إذ يهجر المتخلف أهله، حتى زوجته، كما يهجره المسلمون جميعًا

ويقاطعونه، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْ ﴾ (التوبة: ١١٨).

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى.

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط، ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته، كما حدث في القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته، في بعض الأحيان بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف أو ينالهم العقاب.

هـ) تطهير الجيش:

يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان، ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة، حتى يكون الجيش كله مؤمنًا بعقيدة واحدة، يعمل لتحقيقها، ويبذل كل ما يملكه في سبيلها، وبذلك يستطيع الفوز في الحرب: ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الأحزاب: ٢٠).

و) أساليب القتال:

ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية، ويوزع وحداته على تلك المواضع: ﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ ﴾ (آل عمران: ٣).

ويبتكر القتال بأسلوب الصف، الذي لم تكن العرب تعرفه حينذاك، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ (الصف: ٤).

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر، فهو يؤمن العمق والاحتياط، ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان.

ز) الضبط:

يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة، والثبات في المواقف، وتجنب أسباب الفشل، والاعتصام بالله، وباليقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ (الأنفال: ٤٥-٤٦).

كما حذّر الإسلام من الفرار، وبيّن سوء عاقبته﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ (الأنفال: ١٥-١٦).

ح) الكتمان:

حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها.

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٦٠).

ويقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣).

ط) الهدنة والصلح:

أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب، إذا جنح إليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٢-٦٣).

ى) الأسرى:

خيَّر الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (محمد: ٤).

لقد حرَّم الإسلام قتل الأسير، ومن أسلم أُمتنع قتله، ومن أسلم قبل أسره، ولو لخوف فهو كالمسلم الأصلي، يحرم دمه أيضًا.

ك) المحافظة على العهود:

حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود، وأوجب الوفاء بها، وحرم الخيانة فيها، والعمل على نقضها، وأرشد إلى أن

القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق، والوقيعة بالضعفاء:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (النحل: ٩١، ٩٢).

الحرمات قصاص

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٤، ١٩٥).

المفردات:

الحرمات: واحدها حرمة، وهي ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

القصاص: المقاصة والمقابلة بالمثل.

اتقاء الشيء: طرحه حيث تراه، ثم استعمل في كل ما يطرح، ويلقى مطلقاً.

سبيل الله: هي طريق الخير والبر المؤدي إلى إعزاز دينه، كجهاد الأعداء، وصلة الأرحام.

والتهلكة: الهلاك، والمراد به هنا الإمساك عن النفقة في الاستعداد للقتال وترك الجهاد.

لما قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٩٣).

بيّن تعالى بعد ذلك أن هناك أشهرًا حرمًا يحرم فيها القتال، فقال: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

أي قابلوا حرمة هذه الأشهر بحرمة من جهتكم، إلا إذا اعتدى عليكم فيها، فإن الحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم في هذه الأشهر فعليكم أن تردوا العدوان بمثله، حتى تكون كلمة الله هي

العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والمثلية هنا بمثل ما اعتدى عليكم، تفيد منتهى العدالة في رد الاعتداء، وأن هذا الدين يخاطب العقل الرشيد والمنطق السديد، لا يعرف الإكراه، قال تعالى لرسوله ومصطفاه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس: ٩٩).

وقال له: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٢).

وقال له: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١ـ٢٢).

قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي: (ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب، وما يتجنى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف فقوله يكذبه التاريخ ولا يؤيده، من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهريًا) انتهى كلامه.

وقد جاء الإسلام للشعوب البدائية كالأب الرحيم، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم، كان كالنسيم الهادئ يدفع الشراع دون أن يغرق المركب، وكالحرارة الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض، ثم طمأن القلوب الواثقة وثبت الجماعة المؤمنة عندما أمرهم بالتقوى فقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا ولو كان كاسيًا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيًا

قيل للحسن البصري رضي الله عنه، تقي عصره: يا تقي الدين أي الأيام عندك عيد؟

قال: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عيد

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد زخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذي يأتي قريب ... ولكن الذي يمضي بعيد

أي عدالة تلك؟ بل أي خلق هذا حتى مع الأعداء؟

قابلوا احترامهم للشهر الحرام باحترامكم له، فإن اعتدوا عليكم فليكن ردكم للعدوان قصاصًا، والقصاص ينبئ بالمساواة دون ما تجاوز للحد. وليكن ردكم على عدوانهم مماثلاً في السلاح والأداء. وعادلاً في نفس الوقت: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

والتقوى هي السلاح الأقوى. واعلموا أن الله مع المتقين، وهل بعد معية الله من قوة تذكر؟ كفاني فخرًا بأن تكون لي ربًا، وكفاني عزًا أن أكون لك عبدًا.

فمن أراد مؤنسًا فالله يكفيه، ومن أراد صحة فالله يعطيه، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه، ومن أراد واعظًا فالموت يكفيه، ومن لم يكفه شيء من هذا، فإن النار تكفيه.

إن العز كل العز في طاعة الله والذل كل الذل في معصية الله، ومعية الله هنا بمعنى الحماية والرعاية والصيانة، ألم يقل السيد المعصوم لصاحبه في الغار: لا تحزن إن الله معنا؟

ألم يقل موسى لبني إسرائيل عندما قالوا له إنا لمدركون: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢).

ألم يقل الله تعالى للملائكة، وقد أخذوا الآهبة للهبوط في الميدان يوم بدر: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾؟ الله يتفضل مولانا، جل ذكره على المتقين والمحسنين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾؟

جاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه عكرمة عن ابن عباس: لما سار رسول الله ﷺ معتمرًا في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى فيغزو، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ.

ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، وهو مخيم بالحديبية، أن عثمان قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه، وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، وكان ما كان.

وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتحصن فاروهم بالطائف، عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يومًا، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كرَّ راجعًا إلى مكة، واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضًا عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه.

وبعدما أمرهم تعالى بالجهاد بالنفس في قوله: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٠)، أمرهم سبحانه أن يجاهدوا بالمال فقال: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

كثيرًا ما يقترن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال، قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (التوبة: ٤١).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١).

وقال تبارك اسمه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الصف: ١٠-١١).

وسبيل الله يشمل طرق الخير، وعلى رأسها الجهاد لإعلاء كلمة الله، ثم نهاهم سبحانه عن الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة، وإنما يكون الإلقاء إلى التهلكة بالإمساك عن النفقة والبخل، كما جاء ذلك عن كثير من أهل العلم.

قال حذيفة: نزلت هذه الآية في النفقة.

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حبان نحو ذلك.

وعن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن

أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: ١٩٥). فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. (رواه أبو داود والترمذي والنسائي).

وقال رجل للبراء بن عازب: إن حملت على العدو وحدي فقتلوني: أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا.

قال الله لرسوله: ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ (النساء: ٤).

وإنما هذه في النفقة. (رواه بن مردوية وأخرجه الحاكم في مستدركه).

وقد ورد أن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى إلى التهلكة ولا يتوب.

فتحصل لنا من هذا أن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة إما أن يكون بالبخل كما قال تعالى: ﴿ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمد: ٣٨).

وقد تكون التهلكة بفعل الذنوب وترك التوبة، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن

لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الأنعام: ٦).

وبعد الأمر بالإنفاق جاء الأمر بالإحسان، والإحسان درجة عليا تفوق الإنفاق، فهي درجة الإيثار.

قال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر: ٩).

وقال جل شأنه: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ (الإنسان: ٩).

فالإحسان هو الفضل، والفضل بعد العدل، وقد أمر الله به في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل: ٩٠).

وقد كتب الله الإحسان في كل شيء، حتى في القول عندما قال: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣).

والإحسان بالوالدين، فقال: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (البقرة: ٨٣).

وكما أن الله مع المتقين، فهو يحب المحسنين، فالتقوى والإحسان يؤديان إلى معية الله ومحبته، ومحبة الله كامنة في رضاه، وإذا رضي الله، فماذا بعد الرضا؟

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس امال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي ... خير إليّ من الدنيا وما فيها

الحج والعمرة

﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

المفردات:

الحصر والإحصار: الحبس والتضييق. يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه

والهدْي: يطلق على الواحد والجمع. وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النَّعَم ليذبح ويفرق على الفقراء.

والمحل (بكسر الحاء): مكان الحلول والنزول.

حاضروا المسجد الحرام: هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت.

بعدما ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالصيام من أول قوله جل شأنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وختمها بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، ثنى بعد ذلك بذكر الجهاد وما يتعلق به من حرمة للشهر الحرام، ووجوب الإنفاق، وذكر بعد ذلك الأمر بالإحسان، فقال: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

عطف بعد ذلك الأمر بإتمام الحج والعمرة على الأمر بالإحسان، فالإحسان واجب في كل شيء، وهو الإخلاص في العمل لله تعالى، وأن يراد به وجهه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم. فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا، فلم يفعلوا، انتظارًا للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلق، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: (رحم الله المحلقين)، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، فقال في الثالثة و(المقصرين).

وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل بل كانوا على طرف الحرم. والله أعلم.

وفي هذه الآية بيان لأحكام الحج والعمرة وذكر لأحكام الإحصار، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحلق قبل بلوغ الهدي محله إلا لمن كان مريضًا أو به جروح ونحوها، فإنه يحلق، وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين

(الفرق بالتحريك مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلاً)، فإذا زال الخوف من العدو فمن أتم العمرة وتحلل وبقى متمتعًا إلى رمن الحج ليحج من مكة فعليه دم، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده، إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات.

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾، أي وأتوا بالحج والعمرة تامين كاملين، ظاهرًا بأداء المناسك على وجهها، وباطنًا بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة.

والتجارة لا تنافي الإخلاص إذا لم تُقصد لذاتها، بدليل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨).

أما الرياء والسمعة فإذا كانا هما الباعث على الحج، فالحج ذنب للمرائي لا طاعة، وهذا حكم من يحج ليُقال له (الحاج فلان)، أو ليحتفل بقدومه، أو يقترض بالربا، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحج، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانه وإنما يقصد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة.

وقد كان الحج معروفًا من عهد إبراهيم وإسماعيل وأقره الإسلام بعد أن أزال ما فيه من ضروب الشرك والمنكرات، وزاد فيه مناسك وعبادات وهو فريضة لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: ٩٧)، وللأحاديث الواردة في ذلك.

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بإمرة أبي بكر رضي الله عنه، وكانت تمهيدًا لحجة النبي ﷺ سنة عشر، وفيها أذن أبو بكر بالمشركين الذين حجوا: ألا يطوف بعد هذا العام مشرك.

ونزلت الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (التوبة: ٢٨).

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي فإن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النُسُك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما، وأردتم أن تتحللوا، فعليكم أن تذبحوا ما تيسر لكم من بدنة أو بقرة أو شاة ثم تحللوا.

وذبحها يكون في موضع الإحصار ولو في الحل، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، قد جعل الشارع أمارة الدخول في الحج أو العمرة، الإحرام بنية النسك عند الابتداء به بالتلبية، ولبس غير المخيط من إزار ورداء، وكشف الرأس للرجل، ولبس النعلين، وأمارة الخروج منهما (ويعبر عنه بالإحلال والتحلل) بحلق الرأس أو التقصير. فالنهي عن الحلق نهى عن الإحلال قبل بلوغ الهدي إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه، وذلك حيث يُحصر الحاج وإلا فالكعبة، لقوله تعالى: ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ (المائدة: ٩٥).

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي فمن كان منكم مريضًا يحتاج إلى الحلق ويؤذيه تركه، أو به أذى من رأسه من جراح أو داء، فعليه فدية إن حلق، وهي إما صيام أو صدقة أو نسك.

وقد بين مقدارهما فيما أخرجه البخاري من حديث كعب بن عجرة قال: (وقف عليّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً، فقال: يؤذيك هوامك؟ قلت: نعم، قال: فاحلق رأسك، قال: فنزلت

هذه الآية وذكرها فقال النبي ﷺ: صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر).

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، من خوفكم من عدوكم، أو برأتم من مرضكم الذي منعكم من حجكم أو عمرتكم.

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج، فعليه ما استيسر من الهدي، أي فعليه دم نسك شكرًا لله أن أتاح له الجمع بين النسكين، ويأكل منه كالأضحية، ويذبح يوم النحر.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي فمن لم يجد الهدي لعدم وجوده أو عدم المال الذي يشتري به، فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج، وتمتد إلى يوم النحر، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى بلده، أو شرع في الرجوع، فيجزئ الصوم في الطريق.

﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي هذه الأيام الثلاثة والسبعة الأيام، عشرة كاملة، وهذا نتيجة لما تقدم مبين لجملة العدد الواجب بعد أن بينه تفصيلاً، وفائدته إزالة وهم من قد يظن أن الواو للتخيير بمعنى أو كقوله تعالى: ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء: ٣).

وفائدة وصفها بالكمال الإشارة إلى أن رعاية العدد من المهام التي لا يجوز إغفالها، بل يجب المحافظة عليها دون نقص في عددها، ولا تهاون في أدائها، وإلى أن هذا البدل كامل في قيامه مقام المبدل منه، وهما في الفضيلة سواء.

ثم بيّن سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج، وما يتبعه من الأحكام، خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم، قال: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة:

١٩٦)، أي إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده، ثم السفر إلى العمرة وحدها، أما أهل الحرم فليسوا في حاجة إلى ذلك، فلا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه، واحذروا أن تعتدوا في ذلك، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرماته وركب معاصيه.

الحج المبرور

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

المفردات:

(فرض فيهن الحج) أي أوجبه على نفسه.

والرفث لغة: قول الفحش، وشرعًا قربان النساء.

والفسوق لغة: التنابز بالألقاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ ﴾ (الحجرات: ٧)، وشرعًا: الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحًا في الحل، كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط.

والجدال: المراء والخصام، ويكون عادة بين الرفقة والخدم في السفر، لأنه مشقة تضيق بها الصدور.

والزاد: هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر.

والتقوى: هي ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتنزه عن المنكرات والمعاصي.

وقد ردت عن رسول الله ﷺ أحاديث شريفة بين فيها فضل الحج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ **قال: "إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور"**. (رواه البخاري ومسلم).

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"** (رواه البخاري ومسلم).

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **"العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"**. (رواه البخاري ومسلم).

وعن ابن شماسة رضي الله عنه قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى طويلاً وقال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله: ابسط يمينك لأبايعك، فبسط يده فقبضت يدي فقال: ما لك يا عمرو، قال: أردت أن اشترط.

قال: تشترط ماذا؟ قال: أن يغفر لي.

فقال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ (رواه ابن خزيمة ومسلم).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني جبان، وإني ضعيف، فقال: **"هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج"**.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد، فقال: **"لكن أفضل الجهاد حج مبرور"**. (رواه البخاري وغيره).

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده بإتمام الحج والعمرة وبين حكم الإحصار والتمتع، بيّن سبحانه بعد ذلك أن الحج عبادة موقوتة بأشهر معلومات، وهي شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة، وإنما أطلق الأشهر على شهرين وعشرة أيام من باب التغليب، أي تنزيل العشرة منزلة الشهر، ومن ثم فإن بعض الفقهاء يرى أن الأشهر المعلومات ثلاثة: شوال وذو القعدة وذو الحجة، أما العمرة فإنها جائزة طوال العام، وأفضل ما تكون في رمضان، قال ﷺ: **(عمرة في رمضان تعدل حجة معي)**، والعمرة طواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة، أما الحج فيزيد عليها الوقوف بعرفات، ورمي الجمار، والمبيت بمنى.

قوله تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، أي فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والنية فعليه أن يلتزم بهذه الآداب، إذ الحج مدرسة أخلاقية عليا، ومثل رفيعة من كريم السجايا، فعلى من أوجب الحج على نفسه أن يجتنب الرفث، وهو الجماع ودواعيه من القبلة واللمس والكلام بهذا الشأن مع النساء، وعليه أن يجتنب الفسوق، والمقصود به المعاصي، ويشمل السباب كما في قوله ﷺ: **"سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"**.

كما يشمل التنابز بالألقاب، وهو أن تنادي أخاك باسم يكرهه، وذلك أن تسميه بعاهة فيه كقولك له يا أعرج، يا أعمش، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾

وهذا جانب عظيم من جوانب الأخلاق الإسلامية.

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق
فإذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

قوله تعالى: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، أي لا جدال في مناسكه بعدما بينها الله، وذلك من الوقوف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، أو الوقوف بعرفة، أو المبيت بمنى، وقد يكون المراد بالجدال المراء والمخاصمة واللجاج، وكلها تغضب الناس، بل يجب على الحاج أن يكون سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى.

وإن كانت هذه الأخلاق واجبة على كل حال، إلا أنها في الحج آكد، عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: **"من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه"**.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، والخير هنا يشمل وجوه البر من إغاثة الملهوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصلة الأرحام والقيام بالليل والناس نيام، وتعلق علم الله تعالى بهذه الخيرات، مع أنه سبحانه قد وسع كل شيء رحمة وعلمًا، إلا أن تخصيص العلم فيه دلالة على عظم هذا الخير عند الله كما في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٧٠).

وكما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (مريم: ٣٦).

ثم أمر الله تعالى بعد ذلك بالتزود، أي أخذ الزاد من طعام ونفقة حتى يكف وجهه عن سؤال الناس، وأن يكون ذلك من حلال، لأن الحاج إذا قال: لبيك اللهم لبيك، قال له الملك: لبيك وسعديك، زادك من حلال ونفقتك من حلال وحجك مأجور غير مأزور.

هذا هو الزاد للحج الذي قال الله فيه (وتزودوا)، أما الزاد للآخرة فقد قال فيه تعالى: (فإن خير الزاد التقوى) والتقوى كما فسرها العلي الأعلى في مطلع سورة البقرة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: ٢-٤).

فالتقي هو الذي آمن بالغيب وأقام الصلاة وأنفق مما آتاه الله وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء وأيقن بالبعث بعد الموت.

تزوّد من حياتك للمعاد	وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرًا	فإن المال يُجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم	لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم وجّه الله تعالى الخطاب إلى ذوي العقول عامة فقال: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

فما أجمل العقل إذا استعمله صاحبه في طاعة ربه، وما أتعسه إذا استعمل في الشر والفساد ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

أحكام تتعلق بالحج

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٨ـ١٩٩)

المفردات:

الجناح: الحرج، والإثم من الجنوح وهو الميل عن القصد.

(أن تبتغوا): أي تقصدوا وتطلبوا.

و(فضلاً): أي عطاء ورزقًا منه بالربح في التجارة أيام الحج.

والإفاضة من المكان: الدفع منه، أي أفضتم أنفسكم ودفعتموها، ويقال: أفاض في الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق.

و(عرفات): موقف الحاج في أداء النسك، وسمي بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه، وعرفة اسم لليوم الذي يقف فيه الحاج بعرفات وهو التاسع من ذي الحجة.

والذكر: الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد.

والمشعر الحرام: هو جبل المزدلفة، يقف عليه الإمام، وسمي بهذا الاسم لأنه معْلَم للعبادة، ووصف بالحرام لحرمته، فلا يفعل فيه ما نهى عنه.

جاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنه: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا

في الجاهلية، فتآثموا أن يتجروا في الموسم، فنزلت ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، في موسم الحج.

وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾.

وقد سئل ابن عمر عن الرجل يحج ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)،.

وقد سئل ابن عمر فقيل له: إنا نكري، أي نستأجر، فهل لنا من حج؟ فقال: ألستم تطوفون بالبيت وتأتون المعروف وترمون الجمار وتحلقون رؤوسكم؟

قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، فدعاه النبي ﷺ فقال: **"أنتم حجاج"**.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، اعلم بأن الحج عرفة، أي هو الركن الأعظم، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج.

وعرفة هو موضع الوقوف، كما أن عرفة محدد باليوم التاسع من ذي الحجة، وقد ورد في فضله ما يدل على عظم الأجر للواقفين فيه، فخير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة، وهو أكثر الأيام عتقا من النار، وإن الله تعالى ليدنو ثم يباهي الملائكة بأهل عرفة ويقول لهم: ما أراد هؤلاء؟ ويقول: هؤلاء عبادي أتوني شعثًا غبرًا ضاحين يرجون رحمتي ويخافون عذابي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم. أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمن شفعتم فيهم.

قال ﷺ: **(الحج عرفات)** فالها ثلاثا. فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة. فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه.

ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر. لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال: **(لتأخذوا عني مناسككم)**.

وإنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُري ابراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفت، فسميت عرفات.

عن المسور بن مخرمة قال: خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **(أما بعد، وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد، فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت في رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفًا هدينا هدي أهل الشرك)**. والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم.

ما حكم الوقوف بالمشعر الحرام؟

قال الفقهاء:

الوقوف بالمشعر الحرام ركن عند البعض، لا يصح الحج إلا به، ومن هؤلاء طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي.

وقال البعض: هو واجب يلزم بتركه دم، كما هو أحد قولي الشافعي.

وقال الآخرون: هو مستحب لا يلزم بتركه شيء.

وهكذا تبين أن الحجاج بعد أن يفيضوا من عرفات يتوجهون إلى المزدلفة ليذكروا الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرًا مطابقًا لهدي الله تبارك وتعالى لهم.

ولقد كانوا من قبل أن يهديهم الله يذكرون الله تعالى ذكرًا يشوبه الشرك كقولهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكًا هو لك ملكته وما ملك.

فعلمهم الله على لسان رسوله أن الذكر يجب أن يكون خالصًا صافيًا من كل شائبة، فكانت التلبية لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ومعنى لبيك: أي أجيبك مسرعًا مرة بعد مرة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

(إنْ) هنا مخففة من الثقيلة، والتقدير: وإن كنتم من قبل تعليمه لكم وبيان الهدي من الضالين الغافلين.

وبعدما بيّن الله تعالى الوقوف بعرفات، وهو ركن الحج الأعظم، والوقوف بالمزدلفة بعد ذلك، وقد رأى بعض الفقهاء ـ كما ذكرنا سابقًا ـ أنه ركن لا يصح الحج إلا به، ورأى البعض أنه واجب يلزم بتركه دم، ورأى آخرون أنه مستحب لا يلزم بتركه شيء، وأمرهم تعالى بذكره بعد ذلك ذكرًا خاليًا من شوائب الشرك، بعد أن بيّن ذلك أمرهم سبحانه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، والناس يفيضون من عرفات إلى المزدلفة، أما قريش فقد كانت تقف بالمزدلفة وتفيض منها إلى منى ولا تقف مع الناس بعرفات، وكانوا يجدون في ذلك ميزة لهم وخاصية عن بقية الناس، فأمرهم تعالى أن يقفوا بعرفات كما يقف بقية الناس، وأن يفيضوا من عرفات إلى المزدلفة كما يفيض بقية الناس.

وقريش هم الحمس، ومفرد الحمس هو أحمس، وهو الشديد الصلب، ولما جاء الإسلام قضى على العصبية وأعلنها صريحة مدوية:

(كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣).

لما كان ذلك كذلك فلا ميزة لأحد على أحد في المناسك، فعليكم يا قريش أن تلتزموا هذه التعليمات الإلهية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ روى الإمام البخاري رضي الله عنه بسنده عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: **(سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة)**.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: **(قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)**.

وكثيرًا ما يأمر الله بالاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم، أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا، وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين.

وهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين وخبر:

أما الأمر الأول فقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ وقد روى الإمام البخاري في معنى هذا الحكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها.

والأمر الثاني قوله: (واستغفروا الله)، ولقد تبين أن الاستغفار من لازمه جعل الله له من كل ضيق فرجًا، ومن كل شدة مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقد جاء رجل إلى الإمام الحسن البصري رضي الله عنه فشكا له قلة المطر، فأمره الحسن بالاستغفار، وجاء ثان فشكا له قلة المال، فأمره بالاستغفار، وجاء ثالث فشكا له قلة البنين، فأمره بالاستغفار، وجاء رابع فشكا له قلة النبات فأمره بالاستغفار، وجاء خامس فشكا له قلة الأنهار، فأمره بالاستغفار، فعجب الجالسون وقالوا: أو كلما جاءك شاك أمرته بالاستغفار؟

فقال لهم: أوَ ما قرأتم قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وما أعظم قوله جل شأنه: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

وما أجمل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠).

وما أكرم قوله جل شأنه: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ (هود: ٣).

ومن فضل الله تعالى على المؤمنين أن الملائكة تستغفر لهم ويطلبون من الله المغفرة إكرامًا وإنعامًا، قال جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (غافر: ٧).

وما أجمل قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشورى: ٥).

وما أكرم قوله جل شأنه على لسان نبيه هود: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: ٥٢).

قال أبو بكر رضي الله عنه: قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٤)، فشاكلة العبد المعصية، وشاكلة الرب المغفرة والرحمة.

وقال عمر رضي الله عنه: وقرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ (غافر: ٣).

وقال عثمان رضي الله عنه: قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩).

وقال علي رضي الله عنه: قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

وهكذا تبين لنا الأمر بالإفاضة مقترنًا بالاستغفار، وجاء الخبر مقترنًا بالأمر بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي اطلبوا المغفرة من الله لأنه من شأنه أن يغفر ويرحم، وما أكثر اقتران المغفرة بالرحمة، لأن رحمة الله بعد المغفرة تتجلى في ستره للعبد.

بل هناك ما هو أبعد من ذلك كرمًا، فإنه تعالى ينسى الحفظة الكاتبين ذنوب العبد الذي تاب وأناب واستغفر حتى لا يكون لأحد عليه كشف يترتب عليه الشماتة.

يا من له علم الغيوب ووصفه ... ستر الذنوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى ... كرمًا فليس عليه ثمَّ جناح
منك التفضل والتكرم والرضا ... أنت الإله المنعم الفتاح

قضاء المناسك

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٠٠-٢٠٤).

المفردات:

الخلاق: الحظ والنصيب.

حسنة الدنيا: هي العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة أو العلم والمعرفة.

حسنة الآخرة: هي الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة. والأولى التعميم في كل هذا.

إن المقصود بالمناسك هنا أعمال الحج، والمراد بقضائها أداؤها كما في قوله جل شأنه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء: ١٠٣).

ولكل منسك من تلك المناسك أجر عظيم لمن أداه مخلصًا لله وجهه.

وفي حديث للنبي ﷺ بيّن ذلك الأجر جليًا يأخذ بالألباب ويشد القلوب إلى هناك وما أدراك ما هناك: هناك الصفاء كله والسمو الرفيع والشفافية الروحية.

وهذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة الناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في مسجد منى، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف، فسلما ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك، فقال: إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت؟

فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل.

فقال أخبرني يا رسول الله.

فقال: جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه مع الإفاضة.

فقال: والذي بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئت أسألك.

قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خُفًا، ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاءوني شعثًا من كل فج عميق يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم، ولمن شفعتم له، وأما رميك الجمار فمذخور لك عند ربك، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة، ويمحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت

بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تستقبل فقد غُفر لك ما مضى. (رواه الطبراني في الكبير والبزار).

جاء في سبب نزول هذه الآية أن العرب في الجاهلية كانوا يجتمعون بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يتفاخرون بمآثر آبائهم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يُطعم ويحمل الحمالات والديات، ليس له ذكر غير فعال آباته، فأنزل الله هذه الآية.

ويروى أنهم كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتناشدون، فأمرهم الله أن يذكروه بعد قضاء مناسك الحج. كما كانوا يذكرون آباءهم في الجاهلية أو أشد من ذكرهم اياهم.

وقد جاء الأمر بالذكر يفوح طيبًا ومسكًا في هذا الجو الذي تعانق فيه القلب واللسان في تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وتهليله.

نرى ذلك في قوله جل شأنه: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة: ١٩٨)، كما نراه بعد قضاء المناسك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة: ٢٠٠)، كما نراه في أيام منى في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (البقرة: ٢٠٣).

والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى في قلب العبد، ولابد أن يصحبه تفكر يوقظ القلب ويبعده عن الغفلة.

فالذكر بلا تفكر غفلة، والفكر بلا ذكر جفاء، لذلك وصف الله عباده الصالحين بقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١).

فإذا كان الذكر بلا فكر غفلة، فإن الفكر بلا ذكر جفاء، وإذا كان ذلك كذلك فإن الذكر مع الفكر وفاء.

وأنت ترى أن اللسان وحده إذا كان بينه وبين القلب سور، فإن ذكر اللسان لا يترك للذاكر أثرًا من آثار النورانية المشرقة.

ذهب بلال ليؤذن الفجر في مسجد الهادي البشير صلى الله عليه وسلم فوجد النبي يبكي فسأله: ما يبكيك يا رسول الله؟

قال: يا بلال لقد أنزل عليّ الليلة آية، ويل لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

فليعلم الذاكرون أن الذكر على سبعة أنحاء:

فذكر العينين البكاء، وذكر اللسان الثناء، وذكر الأذنين الإصغاء، وذكر اليدين العطاء، وذكر البدن الوفاء، وذكر الروح الخوف والرجاء، وذكر القلب التسليم والرضاء.

ذكروا أن رجلاً من الصالحين اسمه ثابت كان يمر ذات يوم في إحدى طرقات الكوفة فوجد شجرة قد سقطت منها تفاحة خارج سور الحديقة فأخذها وأكل نصفها ثم تذكر أنه ما كان له أن يفعل ذلك، فذهب إلى حارس الحديقة وقال له: سامحني فيما أكلت ودفع إليه نصفها الآخر. فقال له الحارس: لا أملك السماح لأنني لا أملكها.

قال له: فأين صاحبها؟

فدله عليه فذهب إليه ثابت وأخبره الخبر، فقال له صاحب البستان: لا أسامحك حتى تقبل شرطي عليك.

قال: وما ذاك؟

قال: أن تقبل الزواج بابنتي وسأعرض عليك أوصافها: إنها عمياء بكماء صماء مقعدة.

وهنا ذهب الرجل في موجات عاصفة من الفكر، فقد هبت عليه رياح هوج تحمل قيظ الهواجر وكان في نفسه سؤالاً قد اعتمل: أمن أجل نصف تفاحة ألقى هذا الجزاء؟

ولكن سرعان ما نزلت السكينة قلبه واستنار فؤاده بالرضى: ولماذا لا أتزوجها لأنال رضا الله فيها؟ ومن الذي يتزوجها إن لم أتزوجها أنا؟

وقال لأبيها: لقد قبلت زواجها يا سيدي.

وتم زواجها ولم يرها، وذهب ليعد نفسه لاستقبالها. ولكن أباها قد هيأ له المكان في بيته، ودخلت الفتاة لتكون في استقبال زوجها، وقال أبوها له: ادخل على زوجك بارك الله لكما في ليلتكما، ودخل ثابت عليها وألقى السلام، وقد أخبر من قبل أنها صماء، ولكن الملائكة سترد. فمن ألقى السلام في بيته على أهله كثر الخير في بيته وطردت منه الشياطين، ولكن ما أن ألقى السلام عليها حتى نهضت واقفة وصافحته وردّت عليه السلام، قال الرجل: فنظرت إلى وجهها فكأنه قطعة قمر.

وبعد أن استجمع أنفاسه سألها: لقد أخبرني أبوك بأنك عمياء صماء بكماء مقعدة!

قالت له: نعم لقد صدق أبي فيما أخبر!

إنني عمياء لا أرى ما حرم الله، صماء لا أسمع ما يغضب الله، بكماء لا أتكلم إلا بما يرضي الله، مقعدة لا أمشي إلى ما يسخط الله.

ودخل بها فرزقه الله منها إمامًا جليلاً ملأ طباق الأرض علمًا وفقهًا، انفرد بثلاثة أرباع العلم، وشارك العلماء الباقين في الربع الباقي، إنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت.

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ (الأعراف: ٥٨)، وصدق رسوله إذ يقول: **(فاظفر بذات الدين تربت يداك)**، وإذ يقول: **(إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)**.

وقد صدق بعض الصالحين إذ يقول: (لا تزوج ابنتك إلا لتقي، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لا يظلمها)، فهذا رجل من أجل نصف تفاحة ذكر الله فطلب السماح من صاحبها.

فما أجمل استحضار عظمة الله في القلب، وما أعظم أن يشيع ذكر الله في كيان الإنسان كله. قال ﷺ: **(ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا بلى. قال: ذكر الله)**.

والحجيج، على وجه الخصوص مطالبون بالإكثار من ذكر الله، من تهليل وتكبير وتلبية، حتى إن الأصوات لتبح من كثرة الذكر.

لقد كانوا إذا فرغوا من أداء المناسك يذكرون أمجاد الآباء ويفخرون بهم، فلما أظلهم الإسلام بظله أمرهم أن يلهجوا بالذكر لله كما كانوا يلهجون بذكر الآباء، بل أمرهم أن يكونوا أشد ذكرًا، ثم فرَّع على ذلك مسألة من مسائل الذكر، فقسم الناس قسمين: قسم يطلب من الله الدنيا ولا نصيب له في الآخرة قال تعالى:

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة: ٢٠٠)، وهؤلاء قد أصيبوا بالغفلة ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (الشورى: ٢٠).

والفريق الثاني جمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة. وقد قال الله تعالى في وصف هذا الفريق: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وهكذا يعلمنا الله الأدب في الدعاء فاسأل الله أن يؤتيك الحسنة في الدنيا والآخرة، ثم سلم إليه الأمر في تحديد تلك الحسنة. فإن يد الله تعمل في الخفاء. فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة. فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها.

وحسنة الدنيا تشمل الدار الواسعة والزوجة الطائعة التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك، كذلك تشمل المركب السريع، والجار الطيب.

وقد قالوا: إن من رُزق لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد جمع بين حسنتي الدنيا والآخرة.

والصحة والمال وراحة البال والرضا بما قسم الله، والعلم والمعرفة من حسنات الدنيا، والجنة ورضوان الله والنجاة يوم الحشر من حسنات الآخرة.

ولا تحسبنَّ أن حسنة الدنيا مقصورة على صرف مرتبك من الصراف، فإن الصراف إذا صرف لك فإن الله تعالى سيصرف عنك.

الصراف يصرف راتبًا والله يصرف عنك الهم والحزن والسقم والشقاء ويرزقك الرضا. وقد كان من دعاء الصالحين: اللهم رضِّنا بقضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما آخرت ولا تأخير ما عجلت.

لا تقترح على الله أن يرزقك المال أو الولد، فقد يكثر المال وتكثر معه الهموم والأحزان، وقد تأتي الأولاد ومعها البأساء والضراء والشقاء، ولكن اسأله الحسنة وفوِّض له الأمر بعد سؤالها، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.

كان بعض الصالحين ينام على الطوى وكانوا يقولون: نحن في سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف.

لقد عاد النبي ﷺ مريضًا فوجد المرض قد برَّح به حتى صار كالفرخ الضعيف، فقال له الرسول ﷺ: ألا تدعو الله؟

قال: يا رسول الله أدعوه.

قال: فماذا تقول في دعائك؟

قال أقول: اللهم إن كنت معذبي بشيء في الآخرة فعجله لي في الدنيا.

فقال له الهادي البشير: إنك لا تطيق ذلك، هلاّ قلت: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وما أجمل أن يسأل العبد ربه الوقاية من عذاب النار، وذلك بالبعد عن الأسباب المؤدية لغضب الله من الشبهات والشهوات.

فاللهم إنا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاء من كل داء، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يُسمع.

وقد حكم الله لهذا الفريق الذي جمع في دعائه بين حسنتي الدنيا والآخرة بقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ (البقرة:٢٠٢) أي نصيب من خير الدنيا، لأنهم سلكوا في تحصيل ذلك الأسباب التي شرعها الله وأحلها، فأكلوا مما في الأرض حلالاً طيبًا، واجتنبوا خطوات الشيطان.

ولهم نصيب مما كسبوا في الآخرة لأنهم أخذوا الأسباب إلى رضوان الله، وما أجمل تلك النصيحة التي وجهها القوم إلى قارون: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٦-٧٧).

أما قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فذلك لأن الله لا يعوقه شيء، فكل شيء قائم به، وكل شيء خاشع له، عز كل ذليل، وغني كل فقير، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه.

نعم إنه سريع الحساب، ليس في حاجة إلى آلة حاسبة ولا مستشار ولا معين ولا قضاة، فهو القائم بذاته، الغني عمن سواه ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (لقمان: ٢٨)، إنه سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢).

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٤٩-٥٠)

وكيف لا يكون سريع الحساب وهو القائل: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٣-١٤).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر من ذي الحجة.

وقال عكرمة: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر . الله أكبر.

قال رسول الله ﷺ: **(أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)**، والمراد بأيام التشريق الأيام الثلاثة التي تلي يوم النحر.

قال تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي من رمى الجمار في يومين من أيام التشريق الثلاثة ثم رحل واكتفى بهذين اليومين فلا إثم عليه ولا جناح.

ومن تأخر إلى اليوم الثالث ورمى الجمار فلا إثم عليه، ومن تأخر ملتزمًا بتقوى الله فلا إثم عليه.

وقد ختم الله مشهد الحج عندما ينصرف الحجيج إلى بلادهم ويرجعون بعد أداء المناسك، ختم الله هذا المشهد المهيب بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي لا ترجعوا بعد أداء الفريضة مشتغلين بالدنيا لاهين عن ذكر الله، لأن المرجع إليَّ قبل الانصراف وبعده، فقد وقفتم في صعيد عرفات متجردين من المخيط والمحيط، لا ألقاب ولا رتب ولا أوسمة ولا نياشين، كذلك ستنشرون يوم الحشر في صعيد القيامة. قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

ولنأخذ الآن في بيان كيفية الحج، كما تحدثت عن ذلك كتب الفقه.

كيفية الحج

إذا قارب الحاج الميقات استُحبَّ له أن يأخذ من شاربه ويقص شعره وأظافره ويغتسل أو يتوضأ ويتطيب ويلبس لباس الإحرام.

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم أي نوى الحج إن كان مفردًا، أو العمرة إن كان متمتعًا أو هما معًا إن كان قارنًا، وهذا الإحرام ركن لا يصح النُسك بدونه.

أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضًا، ولو أطلق النية ولم يعين نوعًا خاصًا صح إحرامه، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة.

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفًا، أو هبط واديًا، أو لقى ركبًا أو أحدًا، وفي الأذكار وفي دبر كل صلاة.

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه، ومخاصمة الرفاق وغيرهم، والجدل فيما لا فائدة فيه، وألا يتزوج ولا يزوج غيره.

ويتجنب أيضًا لبس المحيط والمخيط والحذاء الذي يستر ما فوق الكعبين، ولا يستر رأسه، ولا يمس طيبًا ولا يحلق شعرًا ولا يقص ظفرًا ولا يتعرض لصيد البر مطلقا، ولا لشجر الحرم وحشيشه.

فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذي طوى بالزاهر، إن تيسر له.

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من "باب السلام" ذاكرًا أدعية دخول المسجد ومراعيًا آداب الدخول وملتزمًا الخشوع والتواضع والتلبية.

فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه فيسأل الله من فضله، وذكر الدعاء المستحب في ذلك، ويقصد رأسًا إلى الحجر الأسود، فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها، فإن لم يستطع ذلك أشار

إليه، ثم يقف بحذاء الحجر، ملتزمًا الذكر المسنون والأدعية المأثورة ثم يشرع في الطواف.

ويستحب له أن يضطبع ويرمل في الأشواط الثلاثة الأول، ويمشي على هيئته في الأشواط الأربعة الباقية، ويُسَنّ له استلام الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود في كل شوط.

فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تاليًا قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥). فيصلي ركعتي الطواف ثم يأتي "زمزم" فيشرب من مائها ويتضلع منه. وبعد ذلك يأتي "الملتزم" فيدعو الله عز وجل بما شاء من خيري الدنيا والآخرة.

ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب "الصفا" إلى الصفا تاليًا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٥٨).

ويصعد ويتجه إلى الكعبة فيدعو بالدعاء المأثور، ثم ينزل فيمشي في المسعي ذاكرًا داعيًا بما شاء. فإذا بلغ "ما بين الميلين" يهرول، ثم يعود ماشيًا على رسله حتى يبلغ المروة، فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيًا ذاكرًا.

وهذا هو الشوط الأول، وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط، وهذا السعي واجب على الأرجح، وعلى تاركه كله أو بعضه دم.

فإذا كان المحرم متمتعًا حلق رأسه أو قصر وبهذا تتم عمرته. ويحل له ما كان محظورًا من محرمات الإحرام حتى النساء. أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة يحرم المتمتع من منزله ويخرج هو وغيره ممن بقي على إحرامه إلى منى فيبيت بها.

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات، ونزل عند مسجد نمرة، واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام، وإلا صلى جمعًا وقصرًا حسب استطاعته.

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال، فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريبًا منها، فإن هذا موضع وقوف النبي صلى الله عليه وسلم، والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم.

ولا يُسن ولا ينبغي صعود جبل الرحمة ويستقبل القبلة، ويأخذ في الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل.

فإذا دخل الليل أفاض إلى "المزدلفة" فيصلي بها المغرب والعشاء جمع تأخير ويبيت بها، فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام، وذكر الله كثيرًا حتى يُسفر الصبح، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى "منى"، والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم.

وبعد طلوع الشمس يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم يذبح هديه إن أمكنه، ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له ما كان محرَّمًا عليه، ما عدا النساء ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة، وهو طواف الركن فيطوف كما طاف في طواف القدوم، ويسمى هذا الطواف أيضًا طواف الزيارة، وإن كان متمتعًا سعى بعد الطواف، وإن كان مفردًا أو قارنًا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعي آخر.

وبعد هذا الطواف يحل له كل شيء حتى النساء، ثم يعود إلى "منى" فيبيت بها، والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم.

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادي عشر من ذي الحجة رمى الجمرات الثلاث، مبتدئًا بالجمرة التي تلي "منى" ثم يرمي الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمي، داعيًا ذاكرًا، ثم يرمي جمرة العقبة ولا يقف عندها.

وينبغي أن يرمى في كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ويفعل في اليوم الثاني عشر مثل ذلك، ثم هو مخيّر بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثاني عشر وبين أن يبيت، ويرمي في اليوم الثالث عشر. ورمي الجمار واجب يجبر تركه بالدم.

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع، وهذا الطواف واجب وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة.

ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هي الإحرام من الميقات والطواف والسعي والحلق وبهذا تنتهي أعمال العمرة.

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمي الجمار، وطواف الإفاضة، والمبيت "بمنى" والذبح والحلق أو التقصير. هذه هي خلاصة أعمال الحج والعمرة.

حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم

في العام العاشر من الهجرة آذن المؤذن في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزم بمشيئة الله على أداء الحج، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع، لأن الرسول لحق بعدها بالرفيق الأعلى، وتسمى حجة الإسلام، لأن الرسول ﷺ بلغ فيها وبين أصول الإسلام، كذلك تسمى حجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ فيها قواعد الدين وشعائر العبادات وأصول العقائد ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك.

ولنذهب الآن إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه يحدثنا عن هذه الحجة المباركة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم رضي الله عنه.

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ.

فقلت: أنا محمد بن علي بن حسن، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زرِّي الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي، وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحبًا بك يا بن أخي، سل عما شئت؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجةٍ ملتحفًا بها، فلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب.

فصلى بنا فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ، فقال بيده، فعقد تسعًا فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت "أسماء بنت عميس" محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري بثوب واحرمي (معنى الاستثفار: أن تشد في وسطها شيئًا، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها لمنع سيلان الدم) فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء (معنى القصواء: اسم لناقة النبي ﷺ)، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرتُ إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به.

فأهلَّ (معناها من الإهلال، وهو رفع الصوت بالتلبية)، فأهل بالتوحيد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك".

وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يَرُدَّ رسول الله ﷺ شيئا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

قال جابر رضي الله عنه: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرَمَل ثلاثًا، ومشى أربعًا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان يقرأ في الركعتين ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، و﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج إلى باب الصفا.

فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده".

ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. حتى إذا كان آخر طوافه على المروة، فقال: "لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة.

فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟

فشبَّك رسول اللّه ﷺ أصابعه، واحدة في الأخرى، وقال دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبد.

وقدم عليّ من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة رضي اللّه عنها ممن حلَّ، ولبست ثيابًا صبغًا واكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: إن أبي أمرني بهذا.

قال: فكان عليّ يقول بالعراق، فذهبت إلى رسول اللّه ﷺ مُحرِّشًا (التحريش: الإغراء والمراد هنا أن يذكر له ما يقتضي عتابها) على فاطمة للذي صنعت، مستفتيًا رسول اللّه ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها، فقال: صدقت، صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟

قال: قلت: اللهم إني أهل بما أهل به رسولك.

قال: فإن معي الهدي فلا تحل.

قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة.

قال: فحل الناسُ كلهم وقصروا، إلا النبي ﷺ، ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية (يوم التروية: هو اليوم الثامن من ذي الحجة)، توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج.

وتوجه رسول اللّه ﷺ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر أن تضرب له بنمرة.

فسار رسول اللّه ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له.

فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم

هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث (كان مسترضعًا في بني سعد، فقتلته هذيل)، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت،

قال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات".

ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه.

ورفع رسول الله ﷺ، وقد شنق (أي ضم وضيق) للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخي لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا.

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر

الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًا.

فرفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر، أبيض وسيمًا، فلما دفع رسول اللّه ﷺ مرت به ظُعُن (الظعن: جمع ظعينة وهي البعير الذي عليه امرأة، ثم سميت به المرأة مجازًا لملابستها البعير)، مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول اللّه ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر فوضع يده على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر لئلا ينظر، حتى أتى بطن مُحسِّر، فحرّك قليلاً.. ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الحذف، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بيده، ثم أعطى عليًا فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة: أي القطعة من اللحم فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول اللّه ﷺ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: "انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم". فناولوه دلوًا فشرب منه.

قال العلماء: واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد.

قال القاضي عياض: قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه، وأكثروا وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءًا كبيرًا، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفًا وخمسين نوعًا.

قال: ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه.

قالوا: وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سُنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى، وعلى استثفار الحائض والنفساء، وعلى صحة إحرامهما، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبي ﷺ، فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر: لبيك ذا النعماء والفضل والحسن، لبيك مرهوبًا منك ومرغوبًا إليك.

وأنه ينبغي للحاج القدوم أولاً إلى مكة ليطوف طواف القدوم، وأنه يستلم الركن ـ الحجر الأسود ـ قبل طوافه، ويرمل في الثلاثة الأشواط الأولى والرمَل أسرع المشي مع تقارب الخطا، وهو الخبب.

وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين، ثم يمشي أربعًا على عادته، وأنه يأتي بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.

ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلي ركعتين، ويقرأ فيهما في الأولى ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الكافرون)، وفي الثانية ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الإخلاص). ودل الحديث أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول.

واتفق العلماء: على أن الاستلام سُنة، وأنه يسعى بعد الطواف، ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر، ويدعو ثلاث مرات، ويرْمُل في بطن الوادي، وهو الذي يقال له "بين الميلين"، وهو ـ أي الرمل ـ مشروع في كل مرة من السبعة الأشواط لا في الثلاثة الأولى كما في طواف القدوم بالبيت، وأنه يرقى أيضًا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو. وبتمام ذلك تتم عمرته.

فإن حلق أو قصر صار حلالاً، وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم النبي ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة، فأما من كان قارنًا فإنه لا يحلق ولا يقصر، ويبقى على إحرامه ثم في يوم التروية ـ وهو الثامن

من ذي الحجة ـ يُحرم من أراد الحج ممن حلَّ من عمرته ويذهب هو ومن كان قارنًا إلى منى.

والسُنّة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس، وأن يبيت بها هذه الليلة ـ وهي ليلة التاسع من ذي الحجة، ومن السنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس، ولا يدخل "عرفات" إلا بعد زوال الشمس.

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعًا بـ "عرفات" فإنه ﷺ نزل بنمرة، وليست من عرفات.

ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين.

ومن السُنّة ألا يصلي بينهما شيئًا، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة، وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج.

والثانية: أي من الخطب المسنونة يوم السابع من ذي الحجة، يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر، والثالثة: أي من الخطب المسنونة يوم النحر، والرابعة: يوم النفر الأول.

وفي الحديث سنن وآداب منها:

أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين.

وأن يقف ـ في عرفات ـ راكبًا أفضل.

وأن يقف عند الصخرات، عند موقف النبي ﷺ أو قريبًا منه، وأن يقف مستقبل القبلة.

وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس، ويكون في وقوفه داعيًا لله عز وجل، رافعًا يديه إلى صدره، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة، ويأمر الناس بها إن كان مُطاعًا.

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعًا بأذان واحد وإقامتين، دون أن يتطوع بينهما شيئًا من الصلوات وهذا الجمع متفق

عليه بين العلماء، وإنما اختلفوا في سببه، فقيل: إنه نُسُك. وقيل: لأنهم مسافرون أي السفر هو العلة لمشروعية الجمع.

ومن السنن:

المبيت بمزدلفة، وهو مُجْمع على أنه نُسك، وإنما اختلفوا في كونه - أي المبيت - واجبًا أو سُنّة.

ومن السنة أن يصلي الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك، فيأتي المشعر الحرام فيقف به ويدعو.

والوقوف عنده من المناسك.. ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفارًا بليغًا، فيأتي بطن مُحسِّر فيسرع السير فيه، لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل، فلا ينبغي الأناة فيه، ولا البقاء فيه.

فإذا أتى الجمرة - وهي جمرة العقبة - نزل ببطن الوادي ورماها بسبع حصيات، كل حصاة كحبة الباقلاء - أي الفول - فيكبر مع كل حصاة.

ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر - إن كان عنده هدي - ثم يحلق بعد نحره.

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة وهو الذي يقال له: طواف الزيارة، ومن بعده يحلُ له كل ما حُرم عليه بالإحرام، حتى وطء النساء.

وأما إذا رمى جمرة العقبة ولم يطُفْ هذا الطواف، فإنه يحل له كل شيء ما عدا النساء.

هذا هو هدي رسول الله ﷺ في حجه، والآتي به متتد به ﷺ وممتثل لقوله: **(خذوا عني مناسككم)** وحجه صحيح.

خطر الإعراض عن ذكر الله

من قضايا القرآن العظيم: تلك القضية التي سجلها كتاب الله الكريم من بدء الخليقة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه:١٢٣-١٢٤).

إن ذوي الألباب المستبصرة، وأولي الأفئدة المستنيرة، إذا ما طرحوا هذه القضية على بساط البحث ونخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد عقلهم: وجدوا القسمة ثنائية، فالناس فريقان: فريق اتبع الهدى، وفريق أعرض عن الذكر.. فريق اهتدى، وفريق غوى، فهوى.. فريق سلك الطريق المستقيم، وفريق تفرقت به السبل فضاع في بيداء الحياة، وترتب على كل من الفريقين نتائج مختلفة.

ولقد تكلمنا عن نتائج الفريق الأول - فريق المهتدين - وقلنا إنها في مجموعها تدور حول هذه الأمور التي سجلها الكتاب العزيز:

١- لا خوف عليهم.
٢- ولا هم يحزنون.
٣- لا يضل.
٤- ولا يشقى.

ثم تأتي نتائج ترتبت على سلوك الفريق الآخر، فتسجل سورة "البقرة" هذا الفريق الذي يقابل فريق المهتدين بأنهم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله، قال جل شأنه: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۞ (البقرة: ٣٨ـ٣٩).

فهذه الآية المقابلة لآية الهداية تسجل على الفريق الآخر ـ إذا أدى به إعراضه إلى الكفر والتكذيب ـ تسجل عليه الخلود في النار. لأن الإعراض والعزوف عن اتباع الهدى ـ هدى الله ـ وقد يكون طريقًا إلى التكذيب بآيات الله، أو استكبارًا عن أمره. كما أدى ذلك بإبليس عندما تسرب الغرور إلى نفسه، واستحكم الكبر على فكره، عندما أُمر بالسجود لآدم فأبى، وقال له ربه: ۞ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ (ص: ٧٥ـ٧٦).

سجل الله عليه في هذا الموقف الذي أعرض فيه عن أمر الله وطاعته أنه استكبر وكان من الكافرين.

وهكذا يؤدي الغرور والجهل والجحود والكبر بالإنسان إلى هاوية العذاب.. ألم يقل ربك في حق هذا المستكبر: ۞ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ (ص: ٧٧ـ٧٨).

ألم يقل هذا المستكبر لرب العزة: ۞ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ (ص: ٧٩).

ألم يخبره رب العزة بقوله: ۞ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۞ (ص: ٨٠ـ٨١).

وهكذا يظل الصراع داترًا بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وعلى كلا الجانبين أنواع وأنماط ونماذج من الناس... ألم

يقسم هذا اللعين بقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: ٨٢ ـ ٨٣).

ثم يقول له المولى جل في علاه في موضع آخر: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤٢).

ثم ألم يتوعد هذا اللعين الناس بشر سمومه وشروره عندما يقول لرب العزة: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٦ ـ ١٧).

ثم يقول له المولى جل في علاه: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨).

ألم يقل ذلك الرجيم لخالق السماوات والأرض: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢).

ألم يقل مولانا: ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٣ ـ ٦٤).

هكذا، وكما جاء في الحديث الشريف: (**إن إبليس قال لرب لعزة لأغوينهم ما دامت أرواحهم في أبدانهم، فقال رب العزة: وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ما داموا يستغفرونني**).

ثم يوجه الخطاب إلى آدم أبي البشر: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩).

ويسكن آدم الجنة مع زوجه، ثم بعد ذلك يسجل القرآن هذا الموقف: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأعراف: ٢٠ـ٢٤).

ولقد سجلت سورتا "البقرة" و "طه" توبة الله عليهما.. قال جل شأنه في سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

وفي سورة طه: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه: ١٢٢).

وهكذا دخل آدم الجنة، وقد امتلأ قلبه شوقًا إليها. وهكذا أكل من الشجرة، وأقر لله بقوله: (ظلمنا أنفسنا)، وهكذا تاب، فتاب الله عليه.

خطوط عريضة سار بنو آدم على منوالها، وسلكوا سبلها.. كلنا مشتاق إلى الجنة، وكلنا مخطئ، لكن خير الخطائين التوابون، وإذا كان البر لا يبلى فإن الذنب لا يُنسى وإذا كنا إلى فناء فإن الديان لا يموت، وإذا كنا نعمل فإن الجزاء من جنس العمل.. فاعمل ما شئت، كما تدين تدان.

وإذا كان لكل دين خلق، فإن خلق الإسلام الحياء، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(استحيوا من الله قالوا يا رسول الله: إنا نستحي من الله، فقال ﷺ: من استحى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليكثر من ذكر المقابر والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا)**.

ثم يقول ﷺ: **"الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني"**.

آخا الإسلام:

تزود من التقوى، فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليلٌ: هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يُرجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر

هكذا دخل آدم وزوجه الجنة، وهكذا أكلا من الشجرة، وهكذا هبطا إلى الأرض.

نماذج مختلفة، والحياة صراع مستمر، وعراك دائم بين الخير والشر، وبين الحق والباطل. لقد صدر الحكم من الله أن تحيا البشرية في هذه الأرض، وتموت فيها، وتخرج منها يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٥).

وقال أيضًا: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ٥٥).

ولقد تدارك الحق بلطف بره أهل الأرض، فكان من مظاهر لطفه بهم أنه وهبهم عقلاً، ومنحهم حواس وقوى، ووهبهم فطرًا، وبعد ذلك لم يتركهم هملاً فقد تجلى لطفه بهم فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

وشاءت رحمته أن يكلف العباد بأمور في حدود طاقتهم:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥).

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٧٨).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٩).

فلو أن العباد تركوا وشأنهم يشرعون لأنفسهم ما تمليه عليه عقولهم، لوقعوا في حيرة الظلام، واصطدموا بظلام الحيرة .. فالعقول مختلفة متفاوتة متضاربة متناقضة: فما يراه هذا حسنًا يراه غيره قبيحًا، وما يراه هذا عدلاً يراه غيره ظلمًا، وما يعتقده هذا حقًا يراه غيره باطلاً، وبين هذا التضارب في هذا الخضم المتلاطم تهوى البشرية في قاع المحيط.

ومن هنا جاء القانون القرآني الخالد: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣ ـ ١٢٤).

كذلك من مظاهر لطف الله بعباده أنه رفع القلم عن ثلاث: (عن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ).

ورفع عنا الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه، فليس لأحد بعد ذلك أن يرى أحكام الله بما لا يليق بها... فالأحكام عادلة، والشريعة سمحة، وطريق الإسلام أبلج على المحجة البيضاء.. ليلها كنهارها.

بين الشيطان والإنسان

انظر إلى لطف الله بعدما حكم للبشرية أن تحيا في هذه الأرض.

خاطب أبناء آدم وقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

فإذا ما نزعت البشرية هذا الستر الذي أراد الله أن يستر سوءاتها به، فإنما هي بهذا العمل تنحدر إلى الحضيض، لأن الرسول ﷺ حذر من العري فقال: **(إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقوكم إلا عند الحاجة، وعندما يفضي أحدكم إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم)**.

حتى بلغ من أدبه ﷺ أنه أمر الرجل أن يستتر إذا أتى أهله، فقال: **(إذا أتى أحدكم أهله فليستتر)**.

ولو خلا الإنسان بنفسه فعليه أيضًا أن يستتر، كما أخبر الرسول ﷺ بأن الله يراك، والله أحق أن يستحي منه، ثم يأتي لباس التقوى، وهو السلاح الأقوى.

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقوى ... تقلب عريانًا ولو كان كاسيًا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيًا

ولقد حذر رسول الله ﷺ وسلم نوعًا من النساء لا يجدن ريح الجنة، ووصفهن بأنهن كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها.

فإذا ما عصت المرأة ربها، وألقت ثيابها في غير بيت زوجها، برئت منها ذمة الله، أما إذا صلت خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة: ادخلي الجنة من أي أبوابها الثمانية شئت.

ثم يأتي الموقف الثاني بعد هبوط آدم من الجنة حيث يذيع القرآن الكريم هذا التحذير الشديد: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ (الأعراف: ٢٧).

وهذا مصباح منير يقطع المعاذير للعباد أمام الله.. يقول جل شأنه في بعض مواقف القيامة: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ (يس: ٥٩ ـ ٦١).

بل إن الشيطان نفسه سيقف على مسرح القيامة ويصيح: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (ابراهيم: ٢٢).

وقال جل شأنه: ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٤٨).

وقال سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحشر: ١٦).

ولم يكن التحذير قاصرًا على شيطان الجن وحده، بل الشيطان على شتى صوره: إنسيًا كان أو جنيًا.. لقد سئل أحد العارفين بالله: أيهما أشد عليك؟

فقال: شيطان الإنس، لأن شيطان الجن إذا استعذت بالله ولى هاربًا.

لذلك يقرن القرآن الكريم بين الشيطانين مقدمًا: شيطان الإنس في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢).

وذكر العلاج عند نزغ كل منها، قال في سورة "الأعراف" يبين علاج شيطان الجن: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

وقال في شيطان الإنس: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: (قلت: يا جبريل آخبرني عنها، قال: لا أدري حتى أسأل رب العزة، ثم هبط على سيدنا رسول

الله ﷺ فقال له: **أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**).

وفي سورة "المؤمنون" يقول الله تعالى في دواء كل منهما.. يقول في علاج شيطان الإنس: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩٦).

ويقول في علاج شيطان الجن: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٧ـ ٩٨).

ويقول في سورة "فصلت" في علاج شيطان الإنس: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٤ـ٣٥).

وفي علاج شيطان الجن في نفس السورة: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٦).

والقارئ لكتاب الله المتمعن في آياته يجد إذاعة القرآن الكريم لا تكف عن إصدار بياناتها ضد الشيطان وأعماله، فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦).

يحذر من هذه الفعلة الشنيعة وهي الشرك، ثم يرفع الستار، ويكشف النقاب عن نشاط الشيطان في هذا المجال، فيقول جل

شأنه: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ١١٧).

ثم بعد ذلك يبرز أمام العيون ما قاله ذلك الرجيم حتى لا يكون سرًا مكنونًا في ضمير الغيب، فيقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (النساء: ١١٧).

ثم يميط اللثام بعد ذلك عن الطرق التي يأخذ بها ذلك النصيب المفروض، فيقول جل شأنه: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۚ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (النساء: ١١٩ ـ ١٢٠).

ثم يصدر الحكم الحاسم الحازم لأتباع هذا الضال المضل من الشياطين فيقول: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (النساء: ١٢١).

ثم تأمل جلال القرآن وجماله وهو يؤكد عداوة الشيطان للإنسان فيقول: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان: ٢٩).

ثم يقول: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يوسف: ٥).

ثم يؤكد هذا الخطاب فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦).

ويوم تنحرف البشرية عن طريق الله، فإن الشياطين تصير لهم مزينة، ويصيرون لها متبعين. وتقوم بين هؤلاء وأولئك ولاية وصلة، اسمع إلى كلام الله وهو يقول في حق الشيطان: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٧).

وحين تقوم هذه الولاية بين الفريقين يلقي الشيطان على ألسنة أتباعه الحجج الباطلة، والمراء الكاذب.

لقد كان العرب في جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجساد - نساء ورجالاً - فإذا سئلوا عن ذلك قالوا: هكذا كان يفعل آباؤنا والله أمرنا بها! ثم شفعوا هذا القول بعذر هو أقبح من الذنب، فقالوا: إن ثيابنا هذه التي فعلنا فيها الخطايا والمعاصي لا يليق أن نطوف بها!! وعندئذ يتصدى لهم القرآن فيدحض حججهم، ويمحو شبههم، فيقول تعالى:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨ - ٣٠).

ثم يبطل ما فعلوا فيقول: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف: ٣١).

ويوم تنحرف البشرية يزين الشيطان لها سوء عملها فتراه حسنًا، فتصد عن سبيل الله، قال جل شأنه: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٤).

وقال جل شأنه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).

ويومها أيضًا سيمد لها الشيطان شباكه وحبائله فتتبعه.. يقول جل شأنه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٢ ـ ٢٤).

ثم يقول سبحانه مبينًا الطريقة التي اتبعوها والسبيل التي سلكوها فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٥ ـ ٢٦).

ولقد كشف القرآن النقاب عن الذين يتخذهم الشيطان أولياء فيسلكون معه طريق الإغواء، فقال جل شأنه: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣).

ولقد آلى الشيطان على نفسه ألا يقف موقف النصح لأي مؤمن.. فقد جاء في كتاب "تلبيس إبليس" للإمام ابن الجوزي، أن يحيى بن

زكريا عليهما السلام رأي الشيطان ذات يوم فقال له: أعندك ما تستطيع أن تشغلني به؟

قال الشيطان: لا أجد إلا أن تأكل كثيرًا وتشرب كثيرًا، فتنام كثيرًا، وتؤخر الصلاة عن وقتها.. قال يحيى عليه السلام: لا أشبع بعد اليوم قط.

قال الشيطان: وأنا لا أنصح بعدك أحدًا.

وجاء في هذا الكتاب أيضًا أن بعض الصالحين سأل الشيطان: كيف حالك اليوم مع الناس؟

فقال الشيطان: كنت بالأمس أعلمهم، ولكني صرت اليوم أتعلم منهم!.. ولا عجب: فقد قيل لأحد العارفين بالله: هل يكف الشيطان عن الغواية؟

فقال: إذن لاسترحنا.

وإذا كان الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

فليست الرؤية هنا قاصرة على رؤية العين، وإنما تتعداها إلى الرؤية العلمية.. أي إن الشيطان يعلم المسالك التي يدخل بها عليكم من حيث لا تعلمون مسالكه ومسالك قبيله.

وللشيطان من المسالك الكثير المتنوع: فهو ثالث الشريكين إذا خان أحدهما الآخر، وهو الثالث للرجل والمرأة الأجنبية إذا خلا أحدهما بالآخر، وهو الواقف أمام الإنسان إذا أراد أن يتصدق، يعده بالفقر، ويأمره بالفحشاء، وهو الدافع للإنسان إذا طلق زوجته صباحًا أن يأتيها مساء.

وهو الذي يوقع العداوة والبغضاء بين الناس في الخمر والميسر ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، وهو الذي يقف أمام فاعل الخير في أي وجه من وجوهه يدعوه إلى عبادة الدرهم والدينار

والخميصة، يقطع الرحم ويزيد العداء، وهو الواقف أمام المجاهد يذكره بماله وولده وزوجه، يقول: أتلقى بنفسك في الهلاك وتترك مالك وأهلك وولدك؟

وهو الذي ينسي الإنسان أوقات الصلاة، ويلقي عليه بالكسل، فإذا ما دخل الإنسان الخلاء ذكره بربه، وحاول أن يلقي بآيات الله على لسانه في مكان لا يليق فيه ذكر الله.

وهو الذي يرسل موجاته الطويلة المليئة بالوساوس.. يعرض الدنيا أمام الإنسان وهو واقف بين يدي الله في الصلاة، ولذا قال موسى عليه السلام: "يا رب علمني كيف أشكرك؟

قال: يا موسى تذكرني ولا تنساني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإن نسيتني كفرتني".

قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢).

ولقد ساق صاحب كتاب "تلبيس إبليس" والعلامة ابن كثير في معنى قول الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحشر: ١٦).

ساق أمثلة فكادت تنفطر لها الأكباد لكيد الشيطان.. قال العلامة ابن كثير في رواية عن ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "إن راهبًا تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا الراهب فيداويها، قال: فجاءوا بها إليه، فداواها، وكانت عنده فبينما هو يومًا إذ أعجبته، فأتاها بعد أن أغواه الشيطان، فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك، فأطعني أنجك مما

صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فلما سجد له قال: "إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين".

وفي رواية أخرى عن ابن مسعود قال: "كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها، ثم ادفنها، فإنك رجل مصدَق يُسمع لك، فقتلها، ثم دفنها، قال: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها، ثم دفنها في مكان كذا وكذا، فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أأقصها عليكم أم أترك؟

قالوا: لا، بل قصها علينا، فلما قصها، قال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، وقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء، قال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به، فلقيه الشيطان، فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة، وأنجيك مما أوقعتك فيه، فسجد، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه فأخذ فقتل".

فهذه أمثلة ساقها العلماء إشارة إلى ما في هذه الآية الكريمة، دون أن تكون هذه الأمثلة سببًا في نزولها، ولقد جاءت هذه الآية القرآنية العظيمة السابقة في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وهم في مكرهم وخداعهم وخبثهم ولؤمهم، إنما اكتسبوا هذه الصفات من أساليب الشيطان.

نتائج الإعراض عن ذكر الله

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

إذا تمكن الشيطان من الإنسان، فقد يصبح الإنسان أستاذًا له، ويصبح الشيطان له تابعًا.. ألم تر يا أخي إلى ذلك العالم من بني إسرائيل ويدعى "بلعام ابن باعوراء" كان حَبْرًا كبيرًا، وبلغ من ثقة نبي الله موسى فيه أن أوفده إلى أهل مدين يدعوهم إلى الله، ويقف "بلعام الحبر" مرشدًا وهاديًا، ويقف الشيطان منه عدوًا عنيدًا، ومضلاً وخصمًا لدودًا، فيغري أهل مدين أن يقدموا له المال في سبيل أن يكف عن هذا الكلام، ويترك موسى ودعوته فيعرضون عليه المال، وما أدراك ما المال. سلاح قتال، فللذهب بريقه الذي يلعب بالقلوب، وللفضة رنينها الذي يسيل له لعاب الضعفاء.. وتمكن الإغواء والإغراء من قلب "بلعام" فقبل المال، وترك الدعوة، وجفا موسى وربه.

ويسجل القرآن هذا الدرس ليقصه صاحب الرسالة العصماء، فيكون فيه المثل والعبرة، قال جل شأنه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٧).

اقرأ هذا المشهد من القرآن، فإنه مدرسة تلقن البشر دروسًا لا تنسى، وتقص على الناس العبرة لأولي الألباب.. إنه نبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها.. قف عند قوله تعالى: (فانسلخ منها) فإن لهذه الكلمة أثرها الكبير، ومغزاها العظيم.. لم يقل الكتاب العزيز "فانفصل عنها" أو "فتركها"، وإنما قال: (فانسلخ منها) والسلخ - كما يقولون - كشط الجلد عن اللحم.. فلو أن هذا الرجل انفصل عن الآيات أو تركها، لكان من الجائز أن يعود إليها يومًا، ولكن لفظ "الانسلاخ" أفاد أن عودته إليها أمر غير محتمل، كما لا يمكن أن يعود الجلد إلى اللحم بعد سلخه، كذلك أفاد هذا اللفظ أن آيات الله كانت تزينه وتبديه للناس جميلاً في طلعته وبهائه، كما يزين الجلد لحمه، فلما انسلخ من الآيات أصبح قبيحًا دميمًا، كما يبدو لهم بعد كشط الجلد عنه.

ويفيد هذا اللفظ أيضًا أن آيات الله كانت تحميه من عوادى الزمن، كما يحمي الجلد لحمه، فلما انسلخ منها أصبح عرضة للعوادى وعوامل الإغواء، واستهوته الشياطين في الأرض حيران.

ثم ألق نظرة أخرى على قوله تعالى: (فأتبعه الشيطان) وكيف جاء العطف بالفاء - التي تفيد الترتيب والتعقيب - كأن الشيطان انتهزها فرصة بمجرد أن انسلخ هذا الإنسان من الآيات فأتبعه.

ثم ارجع البصر كرتين في قوله تعالى: (فأتبعه الشيطان) ولم يقل فتبع الشيطان، فإن في هذا الترتيب عبرة بالغة: أي أنه لتأصل الغواية في قلبه أصبح متبوعًا، والشيطان له تابعًا.

ثم انتقل بعد ذلك إلى قوله تعالى: (فكان من الغاوين) وكيف جاء التعبير بـ (كان) التي تفيد الكينونة والاستقرار دون أن يؤدي بـ "أصبح" أو "صار" كأن هذا الذي ضل، استقر في الغواية والضلال.

ثم انتقل إلى الآية التي تليها وتأملها بعدما انسلخ هذا من الآيات وبعد ما صار الشيطان له تابعًا، وهو أستاذ له، وبعدما استقر في الغواية - تثبت المشيئة الإلهية بعد ذلك أن الله تعالى لو شاء لرفعه

بالآيات ولكن الذي حدث أنه لم يكن عنده أي استعداد لأن يرتفع بالآيات، بعدما رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وركن إليها، ومال إليها، دون أن يكون هناك ضمير يؤنب، أو نفس تلوم.

فبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة، نامت النفس على هدهدة الشهوات، وذهب وازع الخوف من الله فيها.. وما أجمل هذا التركيب القرآني في أعلى طبقاته عندما يعبر عن الدنيا بأنها الأرض فيقول: (ولكنه أخلد إلى الأرض) دون أن يقول "ولكنه أخلد إلى الدنيا" فالدنيا والأرض صنوان متلازمان لا أمان لمن ركن إليها، ولا اطمئنان لمن تسرب حبها إلى قلبه وملكت عليه أقطار نفسه:

تالله لو عاش الفتى في دهره ... ألفًا من الأعوام مالك أمره
متلذذًا فيها بكل نفيسة ... متنعمًا فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا، ولا ترد الهموم ببابه
ما كان هذا كله في أن يفي ... بمبيت أول ليلة في قبره!

ثم انظر: كيف استحكمت حلقات الغواية حول هذا الذي سقط وهوى، وكيف أحاطت به من كل جانب؟!

إنه بعد أن مال إلى الأرض مطمئنًا لها قلبه اتبع هواه، وما أدراك ما الهوى! إنه نوازع النفس إلى مسالك الشر.. وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوي.

ومن ثم فالقرآن الكريم يحذر من اتباع الهوى، ومن طاعة من اتبع الهوى، قال تعالى في حق المشركين: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ (النجم: ٢٣).

وقال جل شأنه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦).

وقال جل شأنه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد: ١٦).

وقال عز من قائل في حق رسوله ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم: ٣)

وقرن بين غفلة القلب عن ذكر الله، وبين اتباع الهوى. فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨).

النتيجة الأولى:

ومن هذه المقدمات:

١- آتيناه آياتنا فانسلخ منها.
٢- فأتبعه الشيطان.
٣- فكان من الغاوين.
٤- ولكنه أخلد إلى الأرض.
٥- واتبع هواه.

وإذا كان لزامًا إذا ما اجتمعت هذه المقدمات في شخص أن تسلم إلى نتيجة حتمية، فما عسى أن تكون هذه النتيجة؟

إنها الحال العجيبة التي صورها الله في "مثل" فقال جل شأنه: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾. ولكن الكلب في أي حال؟

إن الكلب قد يكون أمينًا لا يعرف الخيانة لسيده، ولكن هذا وأمثاله خانوا الله.. والكلب قد يؤدي دوره من حراسة دون أن يفرط فيما نيط به، ولكن هذا كُلف بعمل فخان دوره.

ولقد يذكرني هذا بحادثة جرت أيام رسول الله ﷺ.. فقد مر ذات يوم فوجد رجلاً قتيلاً بالطريق، فسأل: من قتل هذا؟ قالوا يا رسول الله: إن الرجل سطا على غنم بني زهرة، فخرج عليه كلب الغنم فقتله.. فماذا كان تعليق الصادق الأمين على هذا الحادث؟

قال في حق القتيل ثلاث كلمات يجب أن تكون تذكرة وتعيها أذن واعية.. قال:

١- قتل نفسه.
٢- وأضاع ديته.
٣- وكان الكلب خيرًا منه!

ومن ثم وصف الله أهل النار بأنهم أضل من الأنعام، لأنهم عطلوا الانتفاع بحواسهم وقلوبهم التي خلقها الله لهم وجهزهم بها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

إذن: فما الجامع بين هذا وأمثاله؟

إنه الكلب في أخس صفاته وأشق حالاته: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

واللهث: هو اندلاع اللسان والتنفس بصعوبة، والحمل عليه والترك له: يمثلان حالتي التعب والراحة، فهو في كلا الحالتين متعب يندلع لسانه، ويتنفس بصعوبة، سواء أكرمته وآويته إلى الظل، أو زجرته وتركته.. وهكذا: طلاب الدنيا والساعون لها المكذبون بآيات الله، الغافلون المعرضون عن ذكره، هم دائمًا في تعب: في ليلهم ونهارهم، وصحتهم ومرضهم، وغناهم وفقرهم.. إن أعطوا في الدنيا

طلبوا المزيد، وإن لم يعطوه فيها حزنوا وابتآسوا، وغزا الهم والنصب والوصب نفوسهم.. لو كان لأحدهم واديان من مال لابتغى ثالثًا، لأن جوفه لا يملؤه إلا التراب.

ومن هنا جاءت النصيحة الغالية التي يوجهها العلي العظيم في حديثه القدسي الجليل: "ابن آدم: عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك، لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، إذا كنت مُعافى في بدنك، آمنًا في سربك، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء". قول كريم من رب كريم، لا يعمل به إلا عبد كريم.

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن ... أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

ويسجل أستاذ الإنسانية الأكبر هذه الحقيقة عن الدنيا، فيقول: **(إن هذه الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)**.

كذلك يقول عن المال: **(إن هذا المال خضر حلو، من أخذه بسخاوة نفسن بُورك له فيه، ومن أخذه باستشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع)**.

إن ميزان الناس إذا كان مبنيًا على كثرة المال والعرَض، فهو ميزان مختل، ومعيار معكوس، لا يمكن أن تقوم به قيم، ولا ترجح به كفة.

إذا نظر الناس إلى المال وجعلوه المعيار لقيم الناس فحكمهم غير صحيح وغير جائز.. فلقد مر رجل غني على رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ لأصحابه: **"ما تقولون في هذا؟ قالوا يا رسول الله: هو حري إذا شفع أن يشفع، وإذا خطب أن ينكح، وإذا قال أن يسمع له.**

ثم مر رجل فقير فقال الرسول ﷺ لأصحابه: **وما تقولون في هذا؟ قالوا يا رسول الله: هو حري إذا شفع ألا يشفع، وإذا خطب ألا ينكح، وإذا**

قال أن لا يستمع له، فقال رسول الله ﷺ: والله إن هذا خير من ملء الأرض مثل هذا".

ما أعدل حكمك يا رسول الله! يا صاحب الخلق العظيم، يا صاحب القلب الرحيم، يا رافع لواء الوحدانية خفاقًا عاليًا، شتان بين حكمك الحق وبين نظرة الناس بعضهم إلى بعض!!

فالمعروف عند الناس والمشهود لديهم أن الدنيا إذا أقبلت على أحد، خلعت عليه محاسن غيره، فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه..!

يذل غني النفس إن قل ماله ويغنى غني المال وهو ذليل!

هذه دروس في إحدى مدارس القرآن تلقيناها، وعبر ساحة الإسلام عرفناها، ولذلك لم تكن الآيات قاصرة عبرها على واحد بعينه - كذلك العالم الإسرائيلي - وإنما الحكم شامل وعام لمن توافرت فيه هذه المشخصات، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ثم عقب على ذلك القرآن العظيم بهذه الكلمة الموجزة في مبناها، الكبيرة في معناها، التي تفيد الذم: ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٧).

حق على من توافرت فيه تلك المقدمات الخمسة أن يكون متبوعًا، والشيطان له تابعًا، ثم إن الله أثبت في هذه الآيات أن من كانت هذه حاله فهو الظالم لنفسه، لأن الله لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٣).

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ذلك لأن الهداية الربانية لا تستعصي على أحد إذا وجد عنده الاستعداد المؤدي إلى الاستجابة إلى أمر الله ورسوله.

فهذا عمير بن وهب - الذي كان يلقب بشيطان قريش - يقطع الطريق من مكة إلى المدينة بعد بدر. والعزم والتصميم يدفعانه إلى قتل رسول الله ﷺ. فماذا حدث بعدما وصل وجلس أمام سيدنا رسول الله ﷺ؟

لقد كان عنده ترصد وسبق إصرار على القتل، ولكنه لما رأى الهدى: استجاب، فهداه الله وأصبح داعية يدعو إلى الله تبارك وتعالى. لنترك ابن إسحاق يروي بسنده المتصل إلى عروة بن الزبير:

قال عروة: جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير ،وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت. أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة: ابني أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال: عليَّ دينُك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك. قال: سأفعل، قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشُحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذا نظر عمر إلى عمير بن وهب - وقد أناخ على باب المسجد - متوشحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا وحرزنا للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فقال يا نبي الله: هذا عدو الله عمير بن وهب وقد جاء متوشحًا سيفه، قال: فأدخله عليَّ، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعم صباحًا - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة، قال: أما والله يا محمد إن كنت بهذا لحديث عهد، قال الرسول ﷺ: فما جاء بك يا عمير؟

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم أحسنوا فيه، قال: فما بال السيف الذي في عنقك؟

قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئًا؟

قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك، قال الرسول ﷺ: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق.. ثم شهد شهادة حق، فقال الرسول ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره، ففعلوا، ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، لعل الله

يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي في دينهم.. فآذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم غزوة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب، فأخبره عن إسلام عمير، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا، فلما قدم عمير رضي الله عنه مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه أناس كثيرون، وفرح المسلمون حين هداه الله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لخنزير كان أحب إليّ منه حين اطلع، وهو اليوم أحب إليّ من بعض بنيّ، وبعد أن قدم عمير بن وهب مكة - بعد أن أسلم - نزل بأهله، ولم يلتق بصفوان بن أمية، فأظهر الإسلام ودعا إليه، فبلغ ذلك صفوان، قال: قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله أنه قد ارتكس وصبأ، فلا أكلمه أبدًا، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة، فوقف عليه عمير وهو في الحجر وناداه، فأعرض عنه، فقال له عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة حجر، وذبح له؟ أهذا دين؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله... فلم يجبه صفوان بكلمة.

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم: ٥٠).

النتيجة الثانية:

فيما مضى تحدثنا عن النتائج التي رتبها الله تعالى على اتباع هداه، وذكرنا أن الله تعالى نفى عن هذا الفريق الخوف والحزن والضلال والشقاوة، ثم عقبنا على ذلك بكلام الفريق الآخر، وهو المعرض عن ذكر الله، وتكلمنا عن النتيجة الأولى المترتبة على الإعراض، وهي أن المعرض عن ذكر الله سالك لطريق الشيطان،

وذلك كما جاء في النص الكريم: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

واستدعى ذلك أن نبسط الكلام عن الشيطان وإغوائه وطرقه ومسالكه، وكيف العصمة منه.. وإنما بسطنا الكلام في هذا الباب، لأن الله جل في علاه رسم للبشرية طريقها منذ أن هبط آدم إلى الأرض، ووضح مناهجها التي تسير عليها، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣).

ومن يوم أن أُدخل آدم الجنة وسكنها، والشيطان يحاول أن يرسل الوساوس ويجدّ ويجتهد في إخراج آدم من الجنة، فظهرت عداوته، واتضحت خصومته لآدم وأبنائه من بعده، فناسب ذلك أن نبسط الكلام عن الشيطان ومكايده، وذكر العاقبة الوخيمة المترتبة على السير في طريقه، وأن الصلح مع الله هو طريق النجاة.

ثم إن إبليس أشهر سلاح المعصية، وأصر على ذلك، واستكبر وتولى كبر هذه المسألة عندما أُمر بالسجود فأبى، ثم أخذ يتوعد بني آدم بالإغواء والإضلال، والقعود على الصراط لهم، وسد مسالك الخير أمامهم، فناسب ذلك التفصيل في هذا الباب ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وكان هذا نتيجة أولى ترتبت على الإعراض عن ذكر الله، وهو قوله جل شأنه: ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

والآن تستطيع أن نتكلم عن النتيجة الثانية، وهي قوله جل شأنه: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤).

من المعلوم الثابت أن صريح القرآن ومنطوق آياته نفت أربعة أشياء عن متبعي هدى الله، الذين علموا أن الصلح مع الله هو طريق النجاة، وهذه الأشياء الأربعة التي نفيت عنهم هي:

١- الخوف. ٣- والضلالة.

٢- والحزن. ٤- والشقاوة.

فإذا كانت الآيات في منطوقها تنفي هذه الأربعة عنهم، فإنها في مفهومها تثبتها للفريق الآخر، فيكون المؤدى أن المعرضين عن ذكر الله يعيشون في الخوف والحزن والضلال والشقاوة... وهذه معانٍ ظاهرة من النصوص الكريمة في مفهوم الآيات.

والنتيجة التي نحب أن نتكلم عنها الآن - فضلاً عن هذه الأمور الأربعة التي تثبت للمعرضين - هي النتيجة الثانية، بعدما ذكرنا آنفًا، وهي المعيشة الضنك، وليس في الحياة شيء أمرّ على الإنسان من أن يعيش في ضنك وضيق.

إنه حينئذ يتجشم الأوصاب، ويتجرع كؤوس العذاب، وما ذلك إلا لأنه أعرض عن هدى ربه، وجعل بينه وبين ذكر الله حجابًا مستورًا، فيكون مآله أن يعيش في ضنك عندما يحب خمسًا وينسى خمسًا:

يحب المخلوق وينسى الخالق،
ويحب المال وينسى الحساب،
ويحب القصور وينسى القبور،
ويحب الذنوب وينسى التوبة،
ويحب الدنيا وينسى الآخرة!

يعيش في ضنك عندما لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من المصحف إلا رسمه، وإذا صار همه بطنه وقبلته نساءه، وإذا رأى غيره حسده، وإذا توارى عنه اغتابه، وإذا صارت السنة عنده بدعة، والبدعة عنده سُنّة!

ولقد حذر الرسول ﷺ من ذلك فقال: **(إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء،** قيل: ما هن يا رسول الله؟

قال: **إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشُربت الخمور، ولُبس الحرير، واتُخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا ومسخًا)** (رواه الترمذي).

وهكذا يضع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصورة المفصلة يبين فيها حال أي مجتمع، إذا ما دبت فيه هذه الأمور، واستشرت فيه تلك الرذائل، ماذا يكون مصيره؟

١- حل بهم البلاء.
٢- ريح حمراء.
٣- الخسف والمسخ.

وكل هذه الأمور الثلاثة أو الأربعة تندرج تحت قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤)... وأي ضيق في العيش بعد ما يحل البلاء، وتنتشر الأمراض بالريح الممرضة المزعجة، وينزل الخسف بالعباد، ويحل بهم المسخ؟!

ومن قرأ هذه السورة الكريمة من سور القرآن - وهي سورة الأعراف - يجدها قد اشتملت على حقائق تاريخية، ووقائع موثوق بها لأمم أعرضت عن ذكر الله، فماذا كان مصيرهم؟

أرسل الله إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، عملوا في معسكر واحد، هو معسكر التوحيد، وانضووا تحت لواء واحد، هو قول "لا إله إلا الله".

والصورة بالغة الروعة في عرضها لدروس التاريخ، وشرحها وتفصيلها للأسباب التي أدت بالأمم إلى أن ينزل بهم الخسف

والمسخ، ويحل بهم البلاء والريح الحمراء.. فبعد ما ذكر الله قصة آدم وهبوطه إلى الأرض، بدأ بالحديث عن نوح وقومه، وكانت العاقبة: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٤).

ثم بعد ذلك ذكر هودًا وقومه، وكانت النتيجة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٢).

وذكر صالحًا وقومه، ثم كانت النتيجة: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٧ ـ ٧٩).

وذكر لوطًا وقومه وكيف دعاهم إلى الإصلاح الاجتماعي ونبذ الرذائل، فكانت النتيجة: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٢ ـ ٨٤).

وذكر شعيبًا وقومه، وكيف دعاهم إلى الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي وذكرهم بنعمة الله عليهم، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٨ ـ ٩٣).

هذه دروس في التاريخ قصها الكتاب الحكيم، ووقائع أمم مضت وبقيت شواهدها وآثارها على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات: ١٣٧ـ ١٣٨).

وبعدما قص هذه الدروس بيّن سُنّة الله النافذة في خلقه، وهي ثابتة لا تتخلف، فقال جل شأنه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

لقد حذر الرسول ﷺ من أمور قال في إحداها: **(لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)**، وقال في ثانيها: **(ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القِطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان)**.

والله تعالى يقول في الحديث القدسي الجليل: "أنا الله لا إله إلا أنا، مالك الملك، وملك الملوك، قلوب الملوك في يدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على ملوككم، ولكن اشغلوا أنفسكم بذكري، والتقرب إليّ، أكفكم ملوككم".

توجيهات نبوية

يحذر الرسول ﷺ من أمور أخرى تفيد وقوع البلاء بالخلق فيقول: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)**.

ولما كانت الخمر أم الكبائر، فقد كانت كلمات الرسول فيها كأنها الرعود القواصف.. فاسمع إليه يقول: **"لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه"** وزاد: **"وآكل ثمنها"**.

وقد أنذر الرسول ﷺ وأوعد بأمور قد تحدث لقوم عكفوا على المعصية.. فاسمع إلى قوله في الحديث الشريف: **(يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقصف، حتى يصبح الناس فيقولون: خسف الليلة ببني فلان، وخسف الليلة بدار فلان خواص، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط، على قبائل فيها وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادًا على قبائل فيها وعلى دور، بشربهم الخمر، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات، وأكلهم الربا، وقطيعتهم الرحم)** (رواه أحمد وابن أبي الدنيا والبيهقي).

ويزيد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأمور تحديرًا فيقول: **(من زنى أو شرب الخمر، نزع الله منه الإيمان، كما يخلع الإنسان القميص من رأسه)**.

والذي يتصفح السُنّة المطهرة وينقب في بطونها يجد من الدعوة إلى الإصلاح والتحذير من المعاصي التي تكون سببًا في إنزال البلاء والمعيشة الضنك.. يجد ما يحفزه ويدعوه إلى أن يقف أمام الهدي النبوي سامعًا ومطيعًا وملبيًا، شاكرًا لرسول الله ﷺ فضله.. وهذا حديث عندما قرأته شعرت كأنني أغدو وأروح كالطير يمشي من الألم وهو مذبوح:

قال رسول الله ﷺ: **(إذا استحلت أمتي خمسًا فعليهم الدمار[1]: إذا ظهر التلاعن، وشربوا الخمور، ولبسوا الحرير، واتخذوا القينات، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء)**.

وفي شرب الخمر تنتج الأضرار الآتية:

١- تنتزع من الشارب أنوار الإيمان حين شربه.
٢- استحق لعنة الله وطرده من رحمته.
٣- شربها يدعو إلى جلب الهموم وتضييق الأرزاق.
٤- لا يقدم على شربها إلا العاصي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر.
٥- شربها يجر إلى الوقوع في ارتكاب المعاصي كلها.
٦- يعذب الله الشارب لها يوم القيامة.
٧- حرم الله عليه الجنة إذا شربها مستحلاً لها.
٨- عقاب شارب الخمر كعقاب عابد الصنم.
٩- يحشر يوم القيامة شديد الظمأ.
١٠- لا يقبل الله منه عبادة أربعين يومًا.
١١- شارب الخمر يستحق الإهانة والازدراء والتحقير والجلد، كما قال الرسول ﷺ: **(لا تسلموا على شربة الخمر)**.

---

(١) الهلاك والخراب.

١٢- شارب الخمر يحل عليه غضب الله، ولو مات في هذه الحالة حرم من ثواب الله ورحمته.

١٣- السكران إذا مات على حالته يعذبه الله بسكره، ويذوق مرارة فعله هذا في قبره.

١٤- شرب الخمر إحدى الخصال المدمرة المتلفة، المذهبة للثروة، المضيعة للعقل، الجالبة للنقمة.

وكل هذا مندرج تحت قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤)، ومن ثم فإن الرسول ﷺ في نصحه ينهى عن هذه الموبقات.

استمع إليه وهو ينصح أبا الدرداء فيقول: **(لا تشرك بالله شيئًا، وإن قطعت، وإن حرقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر)**.

وقد بلغ من حذر الصحابة وخوفهم من أن يقترفوا شيئًا من هذه الأشياء المؤدية إلى جلب غضب الله واستحقاق نزول نقمته، بلغ من حذرهم في هذا المجال أن بعضهم كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخير ليفعله، وبعضهم يسأل عن الشر ليجتنبه، فإن من لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه.. فهذا اجتماع بين بعض الأصحاب، بعد وفاة الرسول ﷺ. ولنذكر الحديث الذي دار فيه حتى تقف على مدى حرص هذا المجتمع على النظافة بأوسع معانيها: نظافة القلب، ونظافة النفس، ونظافة الجوارح.. وإليك هذه الصورة الحقيقية:

روى سالم بن عبد الله عن ابيه: أن أبا بكر وعمر وناسًا جلسوا بعد وفاة النبي ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم منها علم، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمر أسأله، فأخبرني أن أعظم الكبائر: شرب الخمر، فأتيتهم فأخبرتهم، فأكبروا ذلك، ووثبوا إليه جميعًا، حتى أتوه في داره فأخبرهم أن رسول لله ﷺ قال: **(إن ملكا من ملوك بني إسرائيل أخذ رجلاً فخيره بين أن يشرب الخمر أو يقتل**

نفسًا أو يزني أو يأكل لحم خنزير أو يقتلوه، فاختار الخمر، وإنه لما شرب الخمر لم يمتنع عن شيء أرادوه منه).

وأن الرسول ﷺ قال: **(ما من أحد يشربها فلا تقبل له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت وفي مثانته منها شيء إلا حرمت بها عليه الجنة، فإن مات في أربعين ليلة، مات ميتة جاهلية).**

وفي هذا المعنى يروي عثمان بن عفان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(اجتنبوا أم الخبائث، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد، ويعتزل الناس، فعلقته[1] امرأة فأرسلت إليه خادمًا: إنا ندعوك لشهادة، فدخل، فطفقت كلما يدخل بابًا أغلقته دونه، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة وعندها غلام وباطية[2] فيها خمر، فقالت: إنا لم ندعك لشهادة، ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام، أو تقع عليّ، أو تشرب كأسًا من خمر، فإن أبيْت صحت بك وفضحتك، قال: فلما رأى أنه لابد له من ذلك قال: اسقني كأسًا من الخمر، فسقته كأسًا من الخمر، فقال: زيديني، فلم تزل حتى وقع عليها وقتل النفس).**

فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان خمر في صدر رجل أبدًا، **(وليوشكن أحدهما أن يخرج صاحبه).**

ويستمر الرسول ﷺ في بيانه وإرشاده في تنظيف المجتمع، والأخذ بيده إلى بر السعادة، وتحذيره من الوقوع في القاذورات، فيدلي بهذا الإنذار الشديد الحاسم فيقول ﷺ: **(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل[3] مستكبر).**

---

(١) أحبته وقلبها هام به.
(٢) إناء كبير.
(٣) فقير.

ويزيد الرسول ﷺ في بيان هذه الموبقات وأنها تبغض صاحبها عند الله فيقول: "**أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر**".

ومن الموبقات التي تورث صاحبها غضب الله، ما جاء في قول الرسول ﷺ: (**وإياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء، وإنما الكبرياء لله رب العالمين**).

وقد حذر الرسول ﷺ من إفشاء العذاب بالأمة إذا فشا فيها ولد الزنا فقال: (**لا تزال أمتي بخير ما لم يفشُ فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب**). (رواه أحمد).

وقال أيضًا: (**إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله**) (رواه الحاكم).

واسمع إليه ﷺ وهو يدعو إلى تنظيف الأسرة من أن يحل بهم الداء الوبيل، فيقول حين نزلت آية الملاعنة: (**أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس فيهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**) (رواه أبو داود والنسائي وابن حبان).

وها هو ذا الصحابي الجليل ابن مسعود يقول: (**سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك**) (رواه البخاري ومسلم والترمذي والنساتي).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ

ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ (الفرقان: ٦٩).

وفي حديث جامع يذيع الرسول ﷺ بيانًا على الأمة يحذر فيه من ذنوب سميت بالموبقات - أي المهلكات - فيقول الرسول ﷺ: **(اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)** (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي).

ثم اسمع إلى رسول الله ﷺ وهو يحدثنا عن مرض من أخطر الأمراض الاجتماعية، يعتبر الآن فاكهة المجالس بين الناس، ومع كونها فاكهة فاسدة وخبيثة إلا أن سوقها رائجة.. فما أكثر المجالس التي تقدم فيها هذه الأطباق من الفاكهة الفاسدة.. ألا وهي "الغيبة".

والغيبة هي ذكرك أخاك بما يكره وهو غائب، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته.. يقول صلوات الله وسلامه عليه: **(إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عِرْض الرجل المسلم)** (رواه ابن أبي الدنيا).

وقال أيضًا: **(أشد الربا وأربى الربا وأخبث الربا: انتهاك عِرْض المسلم وحرمته)**.

ثم استمع إلى هذا القاموس الجامع من دروس التربية الاجتماعية في صورة استفهام وجواب، ليكون أسلوب الحكيم الحافز للهمة، المستثير للعزائم.. اسمع إليه ﷺ وهو يسأل أصحابه: **(أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته،**

وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار). (رواه مسلم والترمذي).

وفي حديث جامع آخر يقول ﷺ: **(خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت مؤمن، والفرار من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حق)** (رواه أحمد).

فإذا استقرأنا أحاديث الرسول ﷺ في الفاكهة الفاسدة التي عمت بها البلوى، وسودت صفحات العباد عند الله، وهتكت الأسرار، وأشاعت مستور الأمور، وافترت على الناس كذبًا وبهتانًا.. فما هي النتائج التي نستطيع أن نخرج بها من مجموعة هذه الأحاديث؟

يقول الأستاذ مصطفى محمد عمارة: إنها ست عشرة نتيجة تجرها الغيبة على صاحبها:

١- يرتكب حرامًا.
٢- فعل ما هو أكثر عقابًا من الربا.
٣- استطعم لحم أخيه وأساغه.
٤- لم ينفع صومه.
٥- كأنه أكل ما هو أنتن من الجيفة.
٦- يُعذب في النار بأكل النتن القذر.
٧- لا يغفر الله له حتى يعفو عنه المغتاب.
٨- ينال عقاب الله في قبره.
٩- تذهب أنوار إيمانه.
١٠- يقابل الله بلا حسنة، ومحملاً بالخطايا.
١١- يستمر عذابه في النار.
١٢- يذوب جسمه حتى يحقق غيبته.
١٣- لا يجد لفعاله فدية (أي كفارة).
١٤- يشرب شراب عرق أهل جهنم.

١٥- يحبس على قنطرة جهنم مدة طويلة.
١٦- لا ينصره الله، ولا يساعده دنيا وأخرى.

أعلمت الأسباب الدنيئة والأغراض الحقيرة التي تدفع صاحبها إلى الغيبة؟

يجيب على هذا السؤال حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله فيقول: اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه: سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه، حتى في ثوبه، وداره ودابته، أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع، والقصر والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي، أو خسيس أو شيء مما يكرهه كيفما كان، وأما الخلق: فبأن تقول هو سيء الخلق، بخيل، متكبر، مراء، شديد الغضب، جبان، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجري مجراه.

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين، فكقولك: هو سارق، أو كذاب، أو شارب خمر، أو خائن، أو ظالم، أو متهاون بالصلاة أو الزكاة، أو لا يحسن الركوع أو السجود، أو لا يحترز عن النجاسات، أو ليس بارًا بوالديه، أو لا يضع الزكاة موضعها، أو لا يحسن قسمتها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس.

وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك: إنه قليل الأدب، متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو إنه كثير الكلام، وكثير الأكل، نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه، وأما في ثوبه فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وذكر الغير ثلاثة أقسام: الغيبة والبهتان والإفك.

فالغيبة: أن تقول ما فيه.

والبهتان: أن تقول ما ليس فيه.

والإفك: أن تقول ما بلغك.

ثم يستطرد الإمام الغزالي قائلاً: والأسباب الباعثة على الغيبة:

١- أن يشفي الغيظ.

٢- موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام.

٣- أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده، ويطول لسانه عليه، أو يتقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة.

٤- أن ينتسب إلى شيء، فيريد أن يتبرأ منه، فيذكر الذي فعله.

٥- إرادة التصنع والمباهاة.

٦- الحسد: فيريد زوال نعمة من هو أحسن منه.

٧- اللعب، والهزل، والمطايبة، وتزجية الوقت بالضحك.. فيذكر عيوب غيره بما يُضحك الناس على سبيل المحاكاة، ومنشؤه التكبر والعُجْب.

٨- السخرية والاستهزاء والاحتقار له.

وجل جلال الله إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٢).

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وقفة اعتبار وعظة

وبعد هذا الحشد النبوي من الأحاديث الشريفة، وهذه الإنذارات الحاسمة القاطعة، نجد لزامًا علينا أن نقول: إن الإعراض عن ذكر الله ظهر لنا جليًا في ناحيتين: أمم عصت أنبياءها وكذبت بلقاء ربها، وهذا ما ذكرناه في دروس القرآن الكريم، وهو يقص علينا من أنباء ما قد سبق، ويقول جل جلاله في ذلك: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٠١ـ١٠٢).

وإذا كان الرسول ﷺ قد ساق لنا هذا الحشد الكبير من الإنذارات والتوجيهات من دروس التربية النبوية، فإنه يبين لنا صورة أخرى من صور الإعراض عن ذكر الله، وهي اقتراف المعاصي، وفعل الموبقات، كما ذكر في الأحاديث الشريفة السابقة لرسول الله ﷺ.

وكلا الإعراضين في صورتيه يحذر منه الإسلام وينهى عن الوقوع فيه، لأن الإنسان العاقل هو الذي يعتبر بحال الماضين من الأمم، ويأخذ من أحداثهم عبرة ودروسًا: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۗ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (طه: ١٢٨).

وهكذا يستمر الكتاب العزيز في استنتاج العبر من أحداث أمم أدرجت في أكفان القدر، وابتلعها العذاب فطواها في ذمة التاريخ..

اسمع إلى قول الله تعالى تعليقاً على ما حدث لقوم لوط: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٣٥).

ثم اسمع إلى التعقيب في سورة "الذاريات" على القصة نفسها: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (الذاريات: ٣٧).

وكذلك في سورة "القمر" يعقب على ما حدث لقوم نوح: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٥).

ثم اقرأ سورة "الشعراء" تجد تعقيب القرآن على أحداث الأمم بعدما حل بها ما حل من عقاب الله، تجد هذه الآية تنادي وتقول: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ١٩٠ ـ ١٩١).

ثم إن الإذاعة الربانية لا تنفك تحذر وتنذر: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٧-١٠٠).

وبعد هذا الجانب الكبير من دروس التاريخ القرآني في سورة "الأعراف" يذكر القرآن ما لقيه نبي الله موسى من عنت الناس، وبعدما جاهد أصدق الجهاد وقوبل بالتكذيب والجحود، ماذا كانت النتيجة؟ لقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٠ ـ ١٣١).

ماذا قالوا لموسى بعد ذلك؟ قالوا كلمة تقشعر لها الأبدان، وتشيب من هولها الولدان، تفيد إصرارهم على عدم الإيمان، ومدى عنادهم لله في هذا.. يقول مولانا عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٢).

ضع نصب عينيك هذه الكلمة القرآنية: ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ وتأمل "أداة الشرط" في هذا التركيب، وهي "مهما" ثم تأمل "اسمية الجملة"، التي تفيد الثبات والاستقرار. ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وقبل ذلك تأمل "فعل الشرط" وهو الإتيان المستمر بالآيات، وتأمل التفكير في الآية الذي يفيد عموم الآية، كأنهم قالوا: إن أية آية تأتينا بها في أي زمان فإننا ثابتون، مصرون على عدم الإيمان! إصرار، وعناد، وجحود، وتكذيب...

فماذا كان رد رب العزة على هذا العناد والإصرار؟ كان ردًا عمليًا، هز النفوس هزًا عنيفًا، وجعل أفئدتهم تتأرجح، كأنها الريشة في مهب الرياح العواصف، ورُجَّت له أعماقهم رجًا، كأنها الهباء المنبث.. فاسمع إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

أرأيت مصانع للمبيدات أقوى من هذه المصانع؟ أرأيت أسلحة أشد فتكًا من هذه الأسلحة الربانية؟ ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (البروج: ١٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢).

طوفان يكتسح بأمواجه العاتية، وجراد تنتشر أسرابه ليأكل الأخضر واليابس، وحشرة خبيثة - وهي القمل - تسبح في الفراش، والثياب فتطرد النوم أمامها منهزمًا وتبدد الراحة، فتولى وإلا تلوى على شيء، وضفادع تمتلئ بها البيوت والأطعمة، ودم سائل أحمر يأتي إما في صورة نزيف مُضعِف ومُهلِك، وإما بتحول الماء الذي يشربونه كما يذكر بعض المفسرين!

فإذا تأملت الآية وجدتها قد فرضت حصارًا شديدًا وعنيفًا حولهم: امتلأت أطعمتهم بالضفادع، وفرشهم بحشرات القمل، ومياه شربهم لوثت بالدم: فلا هناءة بالطعام، ولا تلذذ بالشراب، ولا راحة في المنام.. ثم اقرأ آخر الآية، وهي تبين أن هذه الأسلحة آيات مفصلات، وتعقب على ذلك بأن موقفهم من الآيات كان استكبارًا وإجرامًا: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

استكبروا عن قبول الحق، وآجرموا في أوامر الله. ثم انظر إلى الحال التي أصبحوا عليها وصاروا إليها بعد أن حل بهم هذا الدمار.. يقول جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الأعراف: ١٣٤).

رجوع وتقهقر، وذلة ما بعدها ذلة، ولكن: هل وفوا بشروطهم عندما كشف الله عنهم الرجز؟ لقد ظلوا على مكرهم وخداعهم

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ (يونس: ٢٣).

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح: ١٠).

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (فاطر: ٤٣).

ثم اسمع إلى قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٥).

فماذا كان الرد الرادع، والحدث الفاجع؟ لقد كان تدميرًا وإهلاكًا.. قال جل شأنه: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (الأعراف: ١٣٦).

بسبب ماذا؟ قال جل شأنه: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٦).

تكذيب وغفلة يؤديان إلى وقوع العقاب الرادع.. أرأيت كيف صور القرآن ما حل بهم في أبدع صورة، وأخرج الحادث أبرع إخراج أمام الناظر المعتبر؟! إن الإنسان البصير وهو يتنقل مع الحوادث في المشهد القرآني الرائع لا يستطيع أن يملك قلبه من الخفقان، وأعصابه من الرعدة، وحواسه من القشعريرة التي تنتابه... أحداث جسام، وعبر عظام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ١٤).

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

وجل جلال الله إذ يقول: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣ـ١٢٤).

وهكذا يكون الصلح مع الله ... هو طريق النجاة.

النتيجة الثالثة

من النتائج المترتبة على الإعراض عن ذكر الله مصير المعرض يوم القيامة... كيف يحشر بين الناس؟ وماذا يقول؟ وبآي شيء يرد عليه؟.

كانت النتيجة الأولى المترتبة على الإعراض قوله جل شأنه: ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (النساء: ٣٨).

وجاءت النتيجة الثانية، وهي قوله جل شأنه: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤).

وها نحن أولاء أمام أخطر النتائج المترتبة على ذلك، وهي موقفه من الحشر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ذلك لأن النتائج الماضية كانت في دار الدنيا، أما هذه النتيجة ففي دار الآخرة التي لا نهاية بعدها، وفي يوم وصفه الله بأوصاف تنخلع لها القلوب، وتقشعر من هولها النفوس:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨١).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ١ ـ ٢).

إنه الطامة الكبرى:﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ (النازعات:٣٥)

وإنه الصاخة: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس:٣٤ـ٣٧).

وإنه الساعة: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (الفرقان: ١١).

وإنه الحاقة: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ٣).

وإنه القارعة: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٣ـ٥).

وإنه الغاشية: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾ (الغاشية: ١).

وإنه يوم الحسرة: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (مريم: ٣٩).

وإنه يوم البعث: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ (الروم: ٥٦).

وإنه يوم الآزفة: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر: ١٨ـ ١٩).

وإنه اليوم الموعود: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ (البروج: ١ـ٢).

وإنه اليوم الآخر: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ (النساء:٥٩).

وإنه يوم التلاق: ﴿ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (غافر: ١٥ـ١٧).

وإنه يوم الوعيد: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٠ـ٢٢).

وإنه يوم التناد: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (غافر: ٣٢ـ٣٣).

وإنه يوم القيامة: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ١ـ٢).

وإنه يوم العرض على الله: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الكهف: ٤٨).

أسماء تعددت لمسمى واحد، وما ذاك إلا لعظم هوله، وكبر شأنه، وجليل خطره، وعظيم ما سيجرى فيه.... إنه اليوم الذي سيقف الإنسان فيه أمام محكمة العدل الإلهية الكبرى، ليسأل عمّا قدمت يداه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر: ٩٢ـ٩٣).

ولا حجة ولا عذر: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦).

لقد جفت الأقلام وطويت الصحف.. إن قلت لِمَ لمْ يصلني إنذار بهذا اليوم وبتلك المحاكمة؟ فالإنذار تقرأه في صلواتك. في كل ركعة، وفي فاتحة الكتاب: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤).

فإن قلت: فهل أستطيع أن أحضر اليوم شهودًا؟ كان الجواب: ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النور: ٢٤ـ٢٥).

فإن قلت هل أستطيع أن أوكل من يدافع عني؟ كان الجواب: ﴿ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ (الإسراء: ١٣ ـ ١٤).

فإن قلت: هل أستطيع أن أستأنف الحكم؟ كان الجواب: ﴿ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (الرعد: ٤١).

مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (ق: ٢٩).

ولسوف نعرض عليك نماذج من الأسئلة أحضرها لنا نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم لنكون على علم بها في الدنيا:

﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (الروم ٤٣).

وحتى تستعد للإجابة على هذه الأسئلة وتعمل لها.. سيقول لك الحاكم الأعلى: (شبابك فيم أبليته؟ وعمرك فيم أفنيته؟ ومالك من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟ وعلمك ماذا صنعت فيه؟).

وسيقول لك الحاكم الأعلى جل في علاه: (عبدي: مرضت فلم تعدني، وتقول: وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين؟

فيقول لك: مرض عبدي فلان فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

عبدي: استطعمتك فلم تطعمني، وتقول: وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين؟

فيقول لك: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

عبدي: استسقيتك فلم تسقني، فتقول: وكيف أسقيك وأنت الله رب العالمين؟

فيقول لك مولانا: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي).

فهل أحضرت الجواب على هذه الأسئلة؟! إن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، ويوم تتطاير الصحف على العباد سيكون مشهدًا مليئًا بالخوف والجلال.. فها هو من يأخذ الكتاب بيمينه يصيح: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ (الحاقة: ١٩).

وها هو ذا الذي يأخذ الكتاب بشماله يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٥).

ويقول الأول: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٠).

ويقول الثاني: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٦).

فيكون مصير الأول: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ٢١-٢٤).

ويكون موقف الثاني ندمًا وحسرة حيث لا ينفع الندم، ولا تجدي الحسرة: ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ (الحاقة: ٢٧-٢٩).

ويكون مصيره: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٤).

ثم يأتي العذاب بنوعيه: النفساني والجسماني: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ (الحاقة: ٣٥)، هذا عذاب النفس، وما أشد وقعه وألمه ولوعته!!

إن الفؤاد لينفطر عندما يسمع هذه الآية، وإن النفس لتسيل مرارة لوقعها!

ثم يأتي العذاب الجسماني: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة: ٣٦ - ٣٧).

وإن هذه السورة - "سورة الحاقة" - في آياتها الحاسمة القاطعة، الشديدة القوارع، القاطعة الزواجر لتذكرني بموقف عمر رضي الله عنه إذ يقول: أول ما دخل الإسلام قلبي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة "الحاقة" فقلت في نفسي: إن هذا الكلام كلام شاعر، فإذ

هو يقرأ في آخرها: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة: ٤١).

فقلت في نفسي: إنه قول كاهن، فسمعته يقرأ في آخرها: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الحاقة: ٤٢).

فقلت إنه قول محمد، فسمعته يقرأ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٣ـ٤٧).

وكانت الخيوط الأولى من فجر إسلام الفاروق قد أخذت تملأ أفق قلبه، وتغزو بأضوائها اللآلئ أعماق قلبه، فبعد أن كان جبار الجاهلية أعز الله به الدعوة فأصبح عملاق الإسلام.

إنه القرآن الذي أخرج أممًا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وهبت به شعوب من موتها لتقود سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط إلى بر النجاة.

ماذا يكون موقفك إذا ترتب على المحاكمة الإلهية ما يترتب ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق: ٣٠).

ماذا يكون موقف من أعرض عن ذكر الله؟ إنه يحشر أعمى، لأنه كان في الدنيا كذلك.

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٢)

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)

وإنه عمى عن الحق وعن هدى الله.. إنه عمى الحيرة والضلال.. فلو كان العمى قاصرًا على البصر ما كان في ذلك شيء.

يعير ني الأعداء والعيب فيهم ... وليس بعيب أن يُقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا ... فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرًا وذخرًا وعصمة ... وإني إلى تلك الثلاث فقير!

وما أجمل قول الإمام عبد الله بن عباس - حينما أكرمه الله بسلب بصره - قال:

إن أذهب الله من عينيَّ نورهما ... ففي فؤادي وعقلي منهما نور
عقلي ذكي وقلبي ما حوى دَخَلاً ... وفي فمي صارم كالسيف مشهور

بل إن عمى العينين إذا كان لمؤمن وصبر فإن الله تعالى لا يجد له جزاء دون الجنة، كما صرح بذلك الحديث القدسي الجليل: "إذا ابتليت عبدي بفقد حبيبتيه - يعني عينيه - فصبر، لم أجد له جزاء دون الجنة"!

أما عمى القلوب فإنه طمس وختم وغشاوة وطبع عليها، وهذ غاية في البعد عن الله والحق، ويتساءل ذلك المُعرض: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (طه: ١٢٥)

فيقال له: ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٦)

فإذا ما اجتمع له يوم القيامة عمى البصر وعمى البصيرة كان الواقع أليمًا، وكان ذلك جزاءً وفاقًا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ١٢٧)

من صور يوم القيامة

إليك قول رسول الله ﷺ في موعظة له يحذر من أهوال هذا اليوم .. ففي حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي يقول: (يا أيها الناس: إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)

ألا وإن أول الخلائق يُكسى: إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي! فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٧)

قال: فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)!

ما أهول هذا اليوم! وما أشد خطره على النفس إذا خالفت وانحرفت!

فها هم أولاء قوم غيروا وبدلوا بعد رسول الله ﷺ، فلم يسعه بصددهم في نهاية المطاف إلا أن فوض الأمر إليه ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨)

وتأمل معنى ختام هذه الآية وتذييلها، وكيف ختمت بالعزة والحكمة.. إذ لا يقدر على العذاب إلا العزيز الذي لا يُغلب ولا يُقهر، فإذا ما غفر وعفا، فمغفرته وعفوه لا عن طريق العبث، وإنما هو مقتضى الحكمة الإلهية المطلقة، فجاء التذييل مناسبًا لسياق الآية، فماذا كان جواب الله؟

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٩)

فيا أخي المسلم

لكل نفس وإن كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها
المرء يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها
إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها، والعقل ثانيها
والعلم ثالثها، والحلم رابعها ... والجود خامسها، والفضل ساديها
والبر سابعها، والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها، واللين باقيها
والنفس تعلم أني لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يُفنينا ويُفنيها
واعمل لدار غدًا رضوان خازنها ... والجار أحمد، والرحمن ناشيها
قصورها ذهب، والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها!

إنها دار الخلود: لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران.. من دخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

يا ابن آدم:

أنت الذي ولدتك أمك باكيًا ... والناس حولك يضحكون سرورًا
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

ماذا يكون موقف المعرض عن ذكر الله إذا جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة؟، وماذا يكون موقفه من قول الرسول ﷺ: **(يحشر الناس يوم القيامة على أصناف ثلاثة: صنف مشاة، وصنف ركبانًا، وصنف على وجوههم، قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك)**. (رواه الترمذي).

قارن بين ما اشتمل عليه هذا الحديث من أصناف الناس، ثم بادر بأن تأخذ لنفسك موقف الذين يحشرون إلى الرحمن وفدًا غرًا محجلين. وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، ومسفرة ضاحكة مستبشرة:

دنياك ساعات سراعُ الزوالِ ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا عاقلا ... وتشتري دنيا المنى والضلال؟

ثم تصور هذا الموقف من مشاهد يوم القيامة، والذي يقول فيه رب العزة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ (المدثر: ٣٨ ـ ٤٨)

ثم يعبر عن هذا كله: عدم من ترك الصلاة، وعدم إطعام المساكين، وما يليه من الخوض مع الخائضين، والتكذيب بيوم الدين.. يعبر عنه بأنه إعراض عن التذكرة فيقول: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (المدثر: ٤٩)

ثم تأتي العدسة المشخصة لتصور الموقف الذي يلي هذا، فإذا هو مرعب ومؤسف ومحزن: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٥٠ـ٥١)

فتصور: مجموعة من الحُمُر تنفر أمام أسد شجاع مقدام، ماذا يكون شدة نفورها؟ إنه من الشدة بمكان لا يُسامى.

فهلا وقفت على هذه الحقائق؟! هلا كنت من المصلين، ومن الذين يطعمون المسكين؟ وهلا اجتنبت الخوض مع الخائضين؟ وهلا

صدقت وأيقنت بيوم الدين، وظللت على هذا حتى أتاك الموت والوعد اليقين؟!

إن كنت يا أخي قد وفيت بكل هذا فقدم الشكر لله وقل: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.

وإن كنت مقصرًا في أحد هذه الأمور فلا تلومن إلا نفسك، وبادر بالعمل الصالح، كما قال السيد الجليل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا: هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر)، وقف عند قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو موتًا مجهزًا) وتصور الموت وهو ينقض على ابن آدم المسكين انقضاض السباع المفترسة على فريستها، ثم ينقله بعد الغدارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم في طيب روائحها... ينقله تحت أطباق الثرى جسدا هامدًا ورفاتًا سحيقًا، وصعيدًا جرزًا.. ما هذا الهول؟

أتيت القبور فناديتها	فأين المعظم والمحتقر؟
وأين المذل بسلطانه والجواب	وأين المزكى إذا ما افتخر؟
تساووا جميعًا في مخبر	وماتوا جميعًا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى	فتمحو محاسن تلك الصور
فيا ساتلي عن أناس مضوا	أما لك فيما مضى معتبر؟!

يالله! يالله! إنه موقف رهيب! ماذا بعد الموت؟ (القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار)!

فهلا أعددت الزاد لليلة صبحها يوم القيامة؟ وهلا استمعت إلى رسول الله ﷺ حيث يقول: (تجتمعون يوم القيامة فيقال: أين فقراء هذه الأمة ومساكينها؟

فيقومون، فيقال لهم: ماذا عملتم؟

فيقولون: ربنا ابتليتنا فصبرنا، ووليت الأموال والسلطان غيرنا، فيقول الله عز وجل: صدقتم، قال: فيدخلون الجنة قبل الناس، وتبقى شدة الحساب على ذوي الأموال والسلطان، قالوا: فأين المؤمنون يومئذ؟

قال: توضع لهم كراسي من نور، ويظلل عليهم بالغمام، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار).

هلا أعددت الزاد ليوم يقول الله فيه: "أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي"؟

هلا أعددت الزاد ليوم يقول الله فيه: "أين أهل الفضل؟ فيقومون وهم يسير فيقال لهم: ادخلوا الجنة سراعًا، فتقول لهم الخلائق: لم تسرعون إلى دخول الجنة؟ فيقولون لهم: لأننا أهل الفضل، فتقول الخلائق: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين"؟!

إن الخوف من القيام بين يدي الله في الحساب ربَّى في النفوس شدة الرقابة لربهم فخشيت أن تقترف معاصيه، وجعلت رقابة الله خير وازع يمنعها من الوقوع فيما يغضبه، ويوم تنسى النفوس هذا اليوم وما فيه وما سيجري في ساحته، فإنها تضل وتشقى.. أوَما سمعت إلى هذا المشهد القرآني يلقي باللائمة على قوم عصوا الله، لأنهم نسوا هذا اليوم؟

قال جل شأنه: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين: ١-٦).

حقًا إنه يوم عظيم! وحقًا يقوم الناس فيه لرب العالمين! وحقًا سيسألون، ولن يقتصر السؤال على المرسل إليهم وحدهم، بل

سيشمل المرسلين أيضًا. قال عز من قائل: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٦).

ثم انظر إلى مدى السؤال الموجه إلى الذين أرسل إليهم وما اشتمل عليه من خداع الإنسان وتحايله.. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام:٢٢)

فبأي شيء ردوا على هذا السؤال؟ إن الذي يسأل هو الله الذي يعلم السر وأخفى، ولا تنطلي عليه الحيل، ولا تخفى عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... في قاع بحر زاخر متجندل

بماذا يرد هؤلاء على علام الغيوب عندما يوجه هذا السؤال الحازم الحاسم؟ سيكذبون، بل ويقسمون بالله كذبًا.. اسمع إلى الإجابة من منطوق القرآن العظيم: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٣).

افتراء على الله، وتضليل وكذب.. أكذبوا على الله، أم على أنفسهم؟

الله يرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفي وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوي ومن ينشر!

هذا، ولقد رد القرآن عليهم بصراحة ووضوح. فقال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٤)

فماذا يقول الله للمرسلين في سؤاله لهم؟ لقد سأل الذين أرسل إليهم فأقسموا زورًا وبهتانًا أنهم ما كانوا مشركين.

أما سؤاله للمرسلين فقد أوضحته الآية الكريمة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٩).

فيجيبون قائلين: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: ١٠٩)

قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.

وقال السدي: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم.

وقال ترجمان القرآن ابن عباس: يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علمًا أنت أعلم به.

ثم اختاره ابن جرير على هذه الأقوال الثلاثة.

ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله.. أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن - وإن كنا أجبنا، وعرفنا من أجابنا - ولكن منهم من كنا نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء.. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك أنت علام الغيوب.

فيا أخي: أفق من غفلتك!

يا غاديًا في غفلة، ورائحًا ... إلى متى تستحسن القبائحا؟
وكم إلى كم لا تخاف موقفًا ... يستنطق الله به الجوارحا؟
يا عجبًا منك، وأنت مبصر ... كيف تنكبت الطريق الواضحا؟

إذن فما الفصل في الموقف؟

لقد سأل الله الذين أرسل إليهم، وسأل المرسلين، فكان جواب المرسل إليهم: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٣).

وكان جواب المرسلين: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة: ١٠٩).

إن فصل الموقف هو: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨ ـ ٩).

ومشاهد هذا اليوم متنوعة، وصوره متعددة، وأشكال الناس فيه مختلفة... ومن الصور التي سجلها القرآن لهذا اليوم: صورة يقف صاحبها على مسرح القيامة يَعَضُ يديه ندمًا وحسرة ولوعة وأسى، لأنه صد عن الذكر، ونكص على عقبيه، ولم يتخذ مع الرسول سبيلاً.

اسمع إلى هذه الصورة الثابتة في عرصات القيامة، قال جل شأنه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان: ٢٧ـ٢٩).

فماذا كان الرد؟ إن هذا النادم الباكي أثبت أنه قد أضله بعض المضلين عن الذكر بعد إذ جاءه، فقال في صيغة التمني: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان: ٢٧).

وسجل القرآن هذه الحقيقة الناطقة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان: ٢٩).

أما الرسول ﷺ فقد قال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠).

وأما الشيطان الخذول للإنسان فقد وقف هو الآخر على مسرح القيامة في صورة مقابلة لهؤلاء الشاكين الباكين النادمين.. يتنصل، ويلقي باللائمة على ضحاياه، ويُظهر نفسه بمظهر البريء من كل التهم المسندة إليه... فاسمع بأذنيك، وانظر بعينيك إلى هذا المشهد الآخر:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢)

متى، ولماذا يقول إبليس هذا الكلام؟.. أما متى؟ فبعد فصل القضاء، والحكم للمؤمنين بالجنة، وعلى الكافرين بالنار.. أما لماذا؟ فلأجل أن يزيد أتباعه حسرة على حسرتهم، ووبالاً على ما هم فيه من وبال.

وقد ساق العلامة "ابن كثير" حديثًا شريفًا تعقيبًا على هذه الآية الكريمة، وإليك نص ما قال: عن عقبة بن عامر عن الرسول ﷺ أنه قال: (**إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضي بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم، وذكر نوحًا، وإبراهيم، وموسى وعيسى، فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه، فيثور من مجلسي عن أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي، فيشفعني، ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: هذا، قد وجد المؤمنون من**

يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس، فيقولون: وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم، فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم).

وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس يقول تعالى لعيسى بن مريم: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٦ ـ ١١٨).

قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

فيا أخي: هلا جددت السفينة لهذا اليوم فإن البحر عميق؟ وهلا أكثرت من الزاد فإن السفر طويل؟ وهلا أخلصت العمل فإن الناقد بصير؟ وهلا خففت الحمل فإن العقبة كؤود؟

لكأني بعملاق الإسلام ـ عمر رضي الله عنه ـ وهو يحاسب نفسه كل ليلة فيقول: ماذا تقول لربك غداً يا عمر؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً وضيعًا فرفعك الله .. وكأني بصوته العظيم يرن في أذن المؤمنين: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإن مما يهون عليكم الحساب غدا

أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٨).

رحمك الله يا عمر يا من شهد لك رسول الله ﷺ بالجنة، ومات وهو راض عنك، ونزل القرآن بما يوافق قولك.

لقد شغل هذا اليوم الجليل الخطر نفوس العارفين وقلوب الصالحين، وعلموا أنهم في حاجة إلى عملة يتعاملون بها في هذا اليوم الذي فيه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٩).

فاستعدوا وتزودوا بخير الزاد!

أرأيت إلى عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، وقد جاء إلى ماء زمزم يريد الشرب منها... ماذا قال قبل أن يشرب؟ لقد قال: اللهم إن نبيك محمدًا ﷺ قد قال: **"ماء زمزم لما شرب له"** وأنا أشرب بنية أن يزيل عني العطش يوم القيامة!

فانظر إلى أمنية هذا القانت التائب العابد: لم يشرب منها بقصد أن يجمع عرض الدنيا وزينتها، وإنما شرب بقصد أن يزيل الله عنه العطش في هذا اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا.

ثم أرأيت إلى الحسن البصري رضي الله عنه، وقد قيل له: يا تقي الدين أي الأيام عندك عيد؟ فيقول رضي الله عنه: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عيد!

يا أخا الإسلام:

إن لله عبـــــادًا فطنًـــــا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها، فلما علموا ... أنها ليست لحي سكنا
جعلوها لجة، واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنًا

إن هؤلاء العقلاء علموا أن محكمة الله يوم القيامة ستحاسب، وستضع الموازين، فعملوا لهذا اليوم العمل الذي يليق بجلاله.. أرأيت إلى هذا الحديث الذي رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: **(هل تدرون مما أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، فيقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ يقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهدًا إلا مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، والكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه "أي على فمه"، ويقول لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بُعدًا لكنَّ وسحقًا فعنكُنّ كنتُ اناضل)**.

وفيما رواه ابن حبان في صحيحه عندما قرأ الرسول ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة: ٤)، قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **(فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأَمَة بما عمل على ظهرها، تقول عمل كذا وكذا)**.

وقد قال أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في وصف هذا اليوم: استعد يا مسكين لهذا اليوم: العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه.

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من حوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد ازلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مُدَّت.. يوم ترى الأرض قد زُلزلت فيه زلزالها، وأخرجت أثقالها: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (الزلزلة: ٦).

يوم تحمل ﴿ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٤ـ ١٨).

يوم تُسَيَّر الجبال سيرًا وترى الأرض بارزة، يوم تُرَج الأرض فيه رجًا، وتُبَس الجبال فيه بسًا، فكانت هباء منبثًا.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٤ ـ ٥).

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٢).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

يوم تنسف فيه الجبال نسفًا، فتترك قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا... يوم ترى الجبال تحسبها جامدة، وهي تمر مرَّ السحاب.. يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن: ٣٩)

يوم يمنع فيه العاصي عن الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام، بل يؤخذ بالنواصي والأقدام: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ

خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴿٣٠﴾ (آل عمران: ٣٠).

يوم تعلم كل نفس ما أحضرت، وتشهد ما قدمت وأخرت، يوم تخرس فيه الألسن، وتنطق الجوارح، يوم شيّب ذكره سيد المرسلين ﷺ إذ قال له الصديق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله؟ قال: **(شيبتني هود وأخواتها، وهي الواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت)**!

فيا أيها القارئ العاجز: ما حظك من قراءتك؟ أن تمجمج القرآن وتحرك به اللسان؟ ولو كنت متفكرًا فيما تقرأ لكنت جديرًا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين.. وإذا قنعت بحركة اللسان، فقد حرمت ثمرة القرآن... فالقيامة أحد ما ذكر فيه.

وقد وصف الله بعض دواعيها، وأكثر من أساميها، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها.. ويقول الإمام الغزالي في مشاهد القيامة: "ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهًا من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير، والنقير والقطمير، فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام، وأشخاص ضخام شداد، أُمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار...

ويقول أيضًا: ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق: فرقة ليس لهم حسنة، فيخرج من النار عنق أسود، فيلقطهم لقط الطير الحبَّ وينطوي عليهم، ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار، وينادى عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.. وقسم آخر بلا سيئة له، فينادى مناد: ليقم الحمادون لله على كل حال، فيقومون ويسيرون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم لمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن

ذكر الله تعالى، وينادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها... ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون: خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا، وقد يخفى عليهم - ولا يخفى على الله تعالى - أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرِّفهم ذلك، ليبيّن فضله عند العفو، وعدله عند العقاب، فتطاير الكتب والصحف منطوية على الحسنات والسيئات، ويُنصب الميزان، وتشخص الأبصار إلى الكتب: أتقع في اليمين، أم في الشمال؟ ثم لسان الميزان: أيميل إلى جانب السيئات أم إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق".أ.هـ.

آرأيت إلى وصف القيامة كيف يأخذ بالألباب، وتنفطر له الأكباد، وتنخلع لهوله القلوب، وتطير له النفوس شعاعًا؟!

ثم أرأيت كيف أن القرآن الكريم والسنة المطهرة أفاضا في تفصيل هذا اليوم، وما سيجري على مسرحه من صور ومشاهد ونماذج وأشكال؟ فما هي صورة من أعرض عن ذكر الله في هذا اليوم؟ إنها صورة انحصرت في أشكال ثلاثة:

١- الحشر ٢- القيامة ٣- العمى.

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤)، أرأيت كيف تجلت هذه الصورة أمام العيون، وكيف صارت مرعبة ومحزنة؟!

إن كل كلمة من هذه الكلمات لو أن الإنسان عقلها وفقه مخزون ما فيها، لخر أمامها صَعِقًا.. أتدري ما الحشر؟

الحشر: هو سَوْقُ العباد إلى الموقف يوم الحساب.. ومتى؟ يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧).

يلقى الولد والده فيقول: يا أبت لقد كنت بك برًا، وعليك مشفقًا، وإليك محسنًا، فهل عندك لي من حسنة يعود عليَّ خيرها اليوم؟

فيقول له: يا بني: إنني أشكو مما منه تشكو..

وتلقى الأم ولدها فتقول: يا بني: لقد كان حجري لك وطاء، وثديي لك سقاء، وبطني لك وعاء، فهل لك أن تخفف من هول هذا اليوم عني؟

فيقول: يا أماه: ليتني أستطيع ذلك، إنني أشكو مما منه تشكين!

هو يوم المسئولية الفردية، ولذلك جاءت دعوة الخليل إبراهيم: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩).

وجاء حكم الله القاطع: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (فاطر: ١٨).

ثم تأتي ثالثة الأثافي بعد الحشر الرهيب، في هذا اليوم الشديد الهول، لتصف حال المعرض عن ذكر الله بأنه أعمى، والعمى ـ مع ما فيه من الحيرة والقلق، ولوعة النفس ومرارتها ـ يزيده كربًا على كربه، وهمًا على همه، وأسى على أساه، مما يجعله يتساءل: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (طه: ١٢٥).

فماذا يكون الجواب؟ إنه من جنس العمل: ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٦).

هذا هو الجواب: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٥).

وهل من معتبر؟ هل من تائب فيتوب الله عليه؟ هل من مستغفر فيغفر الله له؟

يا مسكين:

قم في الدجى واضرع إليه وناده ... يا عالمًا بعباده وخبيرًا
إن لم أكن أهلاً لعفوك سيدي ... فلقد عرفتك ساترًا وغفورًا!

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

إلهي: إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك، فإن رحمتك أهلٌ لأن تبلغني، فأنت القائل: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وأنا شيء، فلتسعني رحمتك... إن باب الله يقبل المطرودين، ويعفو عن المذنبين.

فأين طريق النجاة؟ الصلح مع الله: هو طريق النجاة!

النتيجة الرابعة:

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن: ١٧).

فيما مضى عرضنا لقضية قرآنية قطعية الثبوت، ترتب عليها نتائج مختلفة ومتنوعة، وكانت القضية القرآنية الخالدة ذات شقين متقابلين، كان أولهما: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ (طه: ١٢٣) وكان ثانيهما: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ (طه: ١٢٤) وذكرنا أن النتائج المترتبة على الشق الأول أربعة:

١- لا خوف عليهم
٢- ولا هم يحزنون
٣- فلا يضل.
٤- ولا يشقى.

ثم أخذنا نذكر النتائج المترتبة على الشق الثاني، وذكرنا منها ثلاث نتائج، كانت أولاها قوله جل شأنه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

ثم بيَّنَّا لماذا جعلنا هذه أولى النتائج؟

وكانت النتيجة الثانية قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه: ١٢٤).

وعند الحديث عن هذه النتيجة ذكرنا دروسًا من تاريخ الأمم في القرآن، وكيف كذبت وكيف كانت العاقبة، ثم عقبنا بالكلام على هذا بذكر حشد ضخم وقوي من توجيهات الرسول الكريم ﷺ، يحذر وينذر من فعل الكبائر والموبقات، إذ إنها تؤدي إلى نفس النتيجة، من إنزال الدمار والبلاء وضنك المعيشة، ثم كانت النتيجة الثالثة قوله جل شأنه: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤).

فماذا بعد الحشر يوم القيامة؟ وما المصير؟ وأين النهاية؟

تجيب "النتيجة الرابعة" على هذه الأسئلة في حسم وقوة وعزم في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن: ١٧)، وإليك ما جاء عن أئمة التفسير في قوله تعالى: ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾:

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد: أي مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس قال: جبل في جهنم، وعن سعيد بن جبير بئر فيها.

والمتأمل لهذه الآية الكريمة يجدها قد جاءت عقب ذكر بيان المسلمين والقاسطين، قال تعالى في سورة الجن وعلى لسانهم: ﴿ وَأَنَّا

مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن: ١٤-١٧).

فالحكم للّه الواحد القهار: كيف حكم للمستقيمين على الطريقة والشريعة بالتوسع في أرزاقهم، والرغد في عيشهم، وكيف حكم على المعرضين عن ذكره بأن يكون مصيرهم دخول عذاب لا راحة فيه؟

والقارئ لكتاب اللّه، المتأمل في آياته، يجد خطوات على طريق القيامة طويلة وممتدة مختلفة ومتنوعة، تعقد مقارنة محكمة بين فريق الطائعين وفريق المخالفين، بين فريق المتبعين وفريق المعرضين: فبعد أن تنتهي الدنيا وندرج في أكفان الفناء، ويأتي عالم البرزخ - وأول درجاته ومقاماته مقام الاحتضار - نجد الخطوة الأولى بين الفريقين مختلفة:

فالفريق الأول: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

والفريق الثاني يقول أحدهم: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

فيقال له: ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٠).

والفريق الأول: حياة البرزخ عنده روض من رياض الجنة، والفريق الثاني: برزخه حفرة من حفر النار، فإذا نفخ في الصور فالموقف مختلف: فالفريق المتبع للغواية المجتنب للهداية، يدهش ويقول: ﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢).

فيقال له: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

ويقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة، فيقول لهم المهتدون: ﴿ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الروم: ٥٦).

الفريق الأول: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ (القيامة: ٢٢ـ٢٣).

الفريق الثاني: ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴾ (القيامة: ٢٤ـ٢٥).

الفريق الأول: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ (عبس: ٣٨ـ٣٩).

والفريق الثاني: ﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ (عبس: ٤٠ـ٤١).

الفريق الأول: ﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

والفريق الآخر: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (الحديد: ١٣ـ١٤).

ثم انظر إلى كلا الفريقين في الحشر: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (مريم: ٨٥ـ٨٦).

وانظر إليهما عند استلام الكتاب: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ (الحاقة: ٧ـ١٢).

ثم انظر إليهما عندما يقف أهل الجنة أمامها استعدادًا لدخولها: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ (الزمر: ٧٣).

وأما الفريق الآخر فانظر إليه والندامة والألم تملآن عليه نفسه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٧).

فيقول لهم القرآن قاطعًا عليهم كل حجة: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٨).

الفريق الأول عندما يستقر به المقام في الجنة يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (الزمر: ٧٤).

ويقول الفريق الآخر كما وصفه الله: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ (الأحزاب ٦٦).

ثم انظر إلى الفريق الأول يلقي بعضهم بعضًا بالترحيب والتهليل والتبشير: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ٢٥-٢٨).

ثم انظر إلى الفريق الآخر وهو يخاصم بعضه بعضًا في النار: ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٧-٤٨).

ثم انظر إلى الفريق الأول تقول له الملائكة وهم يدخلون عليهم من كل باب: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

وانظر إلى الفريق الثاني يقول لخزنة جهنم: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٩).

فتقول لهم الخزنة: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (غافر: ٥٠).

ثم انظر إلى الفريق الأول كيف يقول الله في حقه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (يونس: ٩).

أما الفريق الثاني فعندما ييأس من الخزنة يتوجه إلى رئيس الخزنة "مالك"، فيقولون: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ (الزخرف: ٧٧).

فيرد عليهم قائلاً: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٧ـ٧٨).

تأمل بعد ذلك دعوى الفريق الأول: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠).

أما دعوى الفريق الثاني فكما يقول الله: ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (الفرقان: ١٣).

فيقال لهم: ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ (الفرقان: ١٤).

ثم انظر إلى الفريق الأول وكيف يثني على الله بما هو أهله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (فاطر: ٣٤).

وكيف يقول الله لهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإنسان: ٢٢).

وانظر إلى الفريق الآخر وكيف يخاطب الله قائلاً: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦-١٠٧).

فيقول لهم الجبار جل في علاه: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨-١١١).

ثم يقول لهم المولى جل في علاه: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٢- ١١٤)

ثم انظر إلى عاقبة كل من الفريقين.. فعاقبة الغاوين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر: ٤٧ـ٤٨).

وعاقبة المهتدين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٤ـ٥٥).

أرأيت إلى هذا الخط القرآني الذي سار في خطواته مع كلا الفريقين من فراش الموت إلى أن استقر بكل منهم في منزلته؟

لقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه دعاء يحفظونه كما يحفظون السورة من القرآن.

وإليك هذا النص النبوي الشريف، الذي ذكر فيه هذا الدعاء: **(اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)**.

أرأيت كيف اتضح الفرق في هذا العرض القرآني الضخم، بين المهتدين والمعرضين: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن: ١٧)

ولقد رغب الإسلام العبد المؤمن أن يسأل ربه الجنة، ويستجير من عذاب النار.. قال رسول الله ﷺ: **(إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر، فيسألهم الله عز وجل - وهو أعلم - من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك، يسبحونك، ويمجدونك، ويهللونك، ويحمدونك ويسألونك، قال: مم يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي، قالوا: لا، أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيروني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، قال: فيقول: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا)**.

ولقد بلغ من تحذير السيد الرحيم محمد ﷺ أنه كان يأمر أصحابه بأن يتقوا النار، ويلح عليهم في ذلك، ويكرر الأمر مرة ومرة، حتى كأنه يشير إلى النار نفسها، لأن كلمة النار ليست بالكلمة التي تمر على الشفاة دون أن تجد لها المكانة في القلوب، فإنها محرقة، وإنها للأجساد نزاعة للشوى، وإنها ستر، لواحة للبشر، وإنها لا تبقي ولا تذر.. فاسمع إلى عدي بن حاتم يقول: قال رسول الله ﷺ: **"اتقوا النار، قال: وأشاح، ثم قال: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح - ثلاثًا - حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة"**..

سبحانك ربي إليك يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ترفعه، لا يضيع عندك عمل ولو كان مثقال ذرة، بل إنك كما قلت - وقولك الحق - ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠).

أسمعت إلى "شق تمرة" تقي الإنسان من عذاب النار؟ هل تصدقت؟ أسمعت إلى "كلمة طيبة" تقيك عذاب النار؟ هل قلت خيرًا؟ ألا فاعلم أن في السماء مملكة، وأن يوم القيامة محكمة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يظلم صاحبها فتيلاً، ولا نقيرًا، ولا قطميرًا... فهلا أعددت الزاد لليلة صبحها يوم القيامة؟!

تم بحمد الله تعالى

الفهرس

مقدمة ٥
فصل: على مائدة القرآن الكريم ١١
الأهـــلة ١١
مشروعية القتال في الإسلام ١٣
الحرمات قصاص ٣١
الحج والعمرة ٣٨
الحج المبرور ٤٣
أحكام تتعلق بالحج ٤٨
قضاء المناسك ٥٦
كيفية الحج ٦٧
حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٠
خطر الإعراض عن ذكر الله ٧٩
بين الشيطان والإنسان ٨٥
نتائج الإعراض عن ذكر الله ٩٥
وقفة اعتبار وعظة ١١٩
من صور يوم القيامة ١٣٣
الفهرس ١٥٩

رقم الإيداع
٢٠٠٦/١٣٥٧٧

الترقيم الدولى
977 – 209 – 143 - 7

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾

(سورة الروم: ٤١)

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو
التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا
بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www. almaktabalmasry. com
info@almaktabalmasry. com

القاهـــــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللـــواء ت : ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندريـــة : ٧ شارع نوبـــار المنشيـــــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢